يوميات رامبرانت

ترجمة : ياسين طه حافظ

23.5.2017





يوميات رامبرانت
1661

ترجمة : ياسين طه حافظ



يوميات رامبرانت



Author: **Alan Passes**	المؤلف: آلن باسز
Drawings: **Oscar Grillo**	رسوم: اوسكار غريلوا
Title: **The Private Diary of Rembrandt**	عنوان الكتاب: يوميات رامبرانت
Translator: **Taha Yassin Hafedh**	ترجمة: ياسين طه حافظ
cover designed by: **Majed Al Majedy**	تصميم الغلاف: ماجد الماجدي
P.C.: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2016**	الطبعة الاولى: 2016



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

+ 964 (0) 770 2799 999 + 964 (0) 770 8080 800 + 964 (0) 790 1919 290	بغداد: حي ابو نؤاس-محلة 102-شارع 13-بناية 141 Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102-13 Street-Building 141 www.almada-group.com email: info@almada-group.com
+ 961 175 2616 + 961 175 2617	بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الاول info@daralmada.com
+ 963 11 232 2276 + 963 11 232 2275 + 963 11 232 2289	دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 آيار al-madahouse@net.sy ص.ب: 8272

❖ آه، أيـة احتفـالات، أي متَـعٍ للنفـس تلـك التي تلـوح على شيخوختِه، على فمه الادرد وفي صورة ذلك الاسد العجوز الذي هو رامبرانت، والقبعة القطنية على راسه، وريشة الرسم بيده!

فان كوخ–رسالة إلى اميلي برنارد

❖ بـين اكثر اللمسـات الجميلة لرامبرانت، هي تلـك التي تعطي انطباعا بانها صنعت من قطعة خشب أو رأس مسمار. ايمكنك القول بعـد هذا بان رامبرانت يجهل تجارته؟ علـى العكس تماما، انه يمتلكها تمامـا ويعرف قيمة العمل اليـدوي، من دون ان يقحم ذلك بين افكار الفنان وتنفيذها. لذا، فالادوات التي صنع منها ستوديو نقّاشٍ حديث جعلتْ ورشته تبدو مثل عيادة طبيب اسنان.

بيير اوكست رينوار

❖ هـذا سـؤال قابـل للنقاش، هل عـرف رامبرانـت اعمال شكسبير؟ لكن ليست هناك أي علاقة روحية بالشاعر الانجليزي الذي تـوفي حين كان رامبرانت في العاشرة من عمره. لا فنان قبل رامبرانت

بحث في الروح الانساني وفهمها بهذه الصورة المؤثرة واظهر حميمية التماس بها مثلما فعل شكسبير قبله.

لكن مــاذا وراء اختلاف روح العصر؟ شكســبير تماما مثل بروغل يــرى الناس وهــم على المسرح. هــو يقود مصــائرهم وافعالهم. وهو يحــدد، مثــل- فيلاســكويز- ردود افعالهم. لكنه، كمــا يبدو، يظل بعيدا لا يكشف عن وجهه. يترك القدر يجري على رسله. القدر يفرز الانسان الصغير بينما الابواق تنطلق والحياة تستمر، تلك الحياة عديمة الرحمة التي لا تعرف العطف، والتي هو هذا مسارها. لا مسيحية في اعمال شكسبير.

جي نوتل وزن ١٩٥٦

G. KNUTTEL WZN. 1956

❖ في انكلــترا. الحــرب الاولى. انا مفلســ وتعيس. زوجتي، التي كانت اصــغر مني سنا واكثر شجاعة، قالت: نذهب إلى متحف. نســتريح. كان انــذاك في كل العالم دمار. في لنــدن، في الامكنة التي تتساقط عليها القنابل- يبدو الامر قليل الاهمية- فنحن نسمع في كل يــوم تدمر مدينة. دمار. هــلاك. خراب عالم اكثر فقرا واكثر حزنا. ها هو الاكثر مرارة.

نظرت إلى لوحة رامبرانت الاخيرة عن نفســه. حجيمية ومدمَّرة. مرعبة جدا وبلا امل، ومرســومة بروعة كبــيرة. جاءتني هذه الافكار تلــك اللحظــة وفكرتُ ان اكون قــادرا على النظر في مــرآة إلى نفسٍ

تتلاشـى. لا ترى شـيئا وترى نفسها. هو رسَـمَ نفسه مثل Neant. الانسـان لا شـيء! اية معجـزة واية صـورة! في تلـك اللوحة رايت شجاعة وشباباً جديداً. قلت هو رامبرانت المقدس حقا.

انا مدين بحياتي للفنانين هولاء!

اوسكار كوكوشتا

OSKAR KOKOSCHTA

❖ رامبرانـت، لم يكـن يؤمن بالخلود. ربما حضر له كأمرٍ ديني، لكنـه لم يصل عنده حد يقينيات الكائن البشري. و لم يكن عنده فاعلاً وموجِّهـاً. وهذا كان سبب اكتئابه. لكنه أيضـاً، لم يستطع ابعاده عن حياة الانسان المتفوق فيه.

لهذا كانت استمراريته متجاوزا ما هو ادنى. هو بقي سجينَ احلامه الكبيرة وسجين فنائه وظمئه. جسـد متنافر. لذا صار المكان والزمان عنـده بُعدين لخلية جسدية. لم يكفّ عن قياس الفرح المر بالاضطهاد، وكما لو ان الحرمان من الابدي لم يكن الا وعياً مؤسفا اكثر بنهايتنا.

مارسيل بريون ١٩٤٦
MARCEL BRION

❖ رامبرانت صور نفسه بوضوح، في الرسم الزيتي وفي النقش

على المعـادن وفي التخطيطات، ما يقارب المائة مرة. وفي كل مرة من هـذه المرات نتعلـم اكثر عن رامبرانـت. إلى حد ما، حقّـقَ رامبرانت متطلبات يونغ وعرضـ الشخصية في رسومه كظاهرة متطورة. تقنياً، كانـت سمتُه التقـدم بحذق متزايد في مضمـون اللوحة. تبدو النفس في رسومـه تخترق القنـاع المرسوم وتجعـل منه تسجيـلا مهتزا لحياة الفنـان الداخلية. لكن رامبرانت كان يشعـر بوضوح ان هذه الدرجة مـن الكشف ليست كافية وان الشخصية تتحطم تدريجيا تحت ضغط الواقع و الوجه يفقد نعومته وتناسقه وتماسكه.

هربرت ريد 1955

❖ قـد نجـد يوما ان رامبرانـت الرسام هو اعظـم من روفائيل. أُدوِّنُ هـذا الكفر الذي سيجعـل شَعَر المدرسين يقـفُ طويلا قبل ان يهطل إلى أي من الجهتين.

ديلكروا (اوائل القرن التاسع عشر)

❖ في القرن السادس عشر، كل اشكالات الفن وجدتْ حلّها: كمالات الرسـم، جاذبيته، والتكوينات، عنـد روفائيل. واشكالات الضـوء والظـل عند كوريجيـو وتيتيان وباولو فرونس ثـم جاء روبنز الـذي نسي تقاليـد اللطف والبساطـة وبعبقريته اعـاد صناعة المثال. جـاء هذا من خـلال طبيعته هو نفســه وفرضه بقوة التاثـير وصدقه.

لقد اوصل التعبير إلى حـدوده القصوى. فهل وجد رامبرانت هذا في غموض الحلم وعلاقته بالحياة؟

يوجين ديلكروا
EUGENE DELACROIT 1947

❖... طبعـا انت تستطيع قول ذلـك اذا رسمت شيئا... فانت لا ترسـم الشيء وحده ولكـن نفسك معه، تماما كما تحـاول ان تنحت الشيء لان الرسم الفاعل ذو طبيعة مزدوجة، وفيه ثنائية.

فانـا مثلا، اذا نظـرت الى احد رسوم رامبرانـت، اشعر كما لو اني اعرف عن رامبرانت اكثر مما عن الموديل الذي يرسمه...

فرانسز باكون
FRANCIS BACON





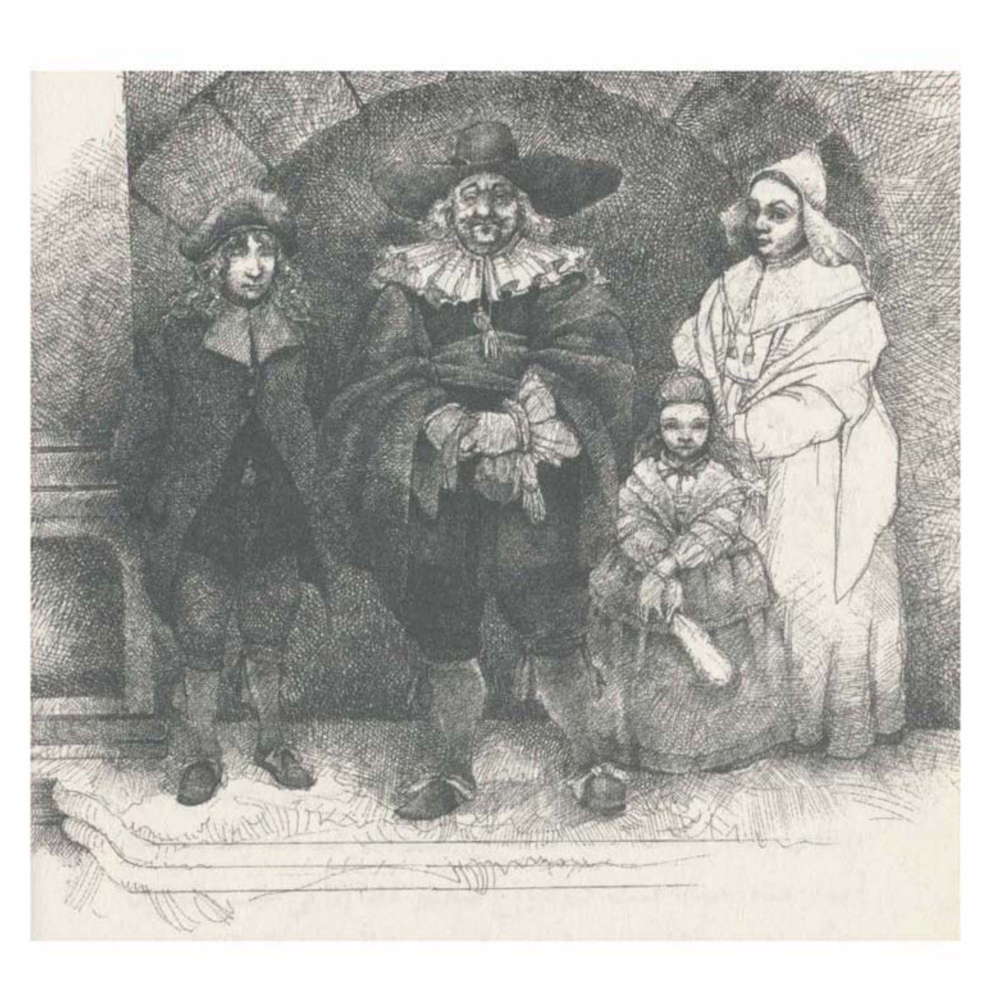
امستردام- الاول من كانون الثاني ١٦٦١

وهكـذا، امامي سنة اخـرى جديدة. من يدري مـا ستأتي به هذه السنـة لي ولمن أُحب؟ قبل ان ابتديء هذه الايام التي لم تُكْتَب بعد و لم تُرْسَـم، أظن مفيداً أن ألتفـت الى وراء لأرى كم ابتعـدت الآن. أولاً دعنـي اعترف بأني قد كبرت. وأنـا وإن كنت أشعر بهذا في جسدي، فأنـا ما زلت بعيداً عن السبعين. وأنا أحس بذلك أكثر في روحي التي نالت ضربات كثيرة جارحة (والتي كنا فيها الاكثر مرارة واكثر متاعب على هذه الارض). مع ذلك ما ازال ارتشف بقوة عصائر هذه الحياة. لكـن الألم اشد في اعماق النفـس، حيث الينابيع البعيـدة، تلك التي مياهها هـي الأصفى. عواطفي على السطح تبـدو اقل كثيراً من تلك التي داخل الروح.

يطيب لي هذا البيت قرب القناة، لم يمر عليَّ فيه وقت طويل. اشعر انـه آخر حضـن في حياتي، اعيش فيـه مع امرأتي الطيبـة هندريكشة ستوفلـز وابنتنا المحبوبـة كورنيليا وايضا تيتوس، ولدي من زوجتي الحبيبة ساسكيا، انعم الله على روحها بالراحة. نعيش في حب حميم. ولـدي وهندريكشـة يسلكان كأخ واخت اكثر ممـا هما ولد وزوجة أب ترعـاه. هما اخـت كبيرة واخ صغـير تماماً إلا في عينـي القانون والكنيسة. هو الان يقارب العشرين وهي ما تزال في اوائل الثلاثينيات مـع الكثير من مظاهر المرأة الشابـة. هي ما تزال طلقةً رقيقة عذبة مثل خوخـة ناضجـة، ولكن قوية مثـل عِجْلة، فتاة ريفية حقـاً. اما كيف يعاملونني، فلا ارغب باكثر من ذاك اللطف ولا بافضل منهما. وان لم

تكن ظروفنا سهلة كما كانت (كيف انسى اني كنت الأكثر غنى وبحثاً عـن الروح الفنـان في هولندا كلها؟ شكراً لموهبتـي وأسلوبي فهما لم ينقصا أبـداً بالرغم من الدائنين القساة. لقـد أرادت مهارتي وإرادتي إنجـاز شيء فمضتا بعيدا حتى نهاية نفسي لانضاجه. كوفيء عملي في هذه الازمنة الفقيرة. فله اقدم شكري.

مهمـا يكن لن اتوق الى الماضي... وإن كنـت كثيراً ما أفكر فيه.. فأنـا أتدفّـأ بوهجه مثل كلب عجـوز يستريح قريباً مـن النار، والذي تنتابه غمرات من أنّـات ونشيج ليهزه من بعد حلم غامض بديع ينبثق مـن شعل اللهيب حوله والتواءات الدخـان القاتم. ومثله في نومه انام وتجـري ذاكرتي في ممّرات استذكار البهجة بينما تحك اصابعي الممتلئة اسطح الاشياء بفرشاة الاصباغ، بمزّاجه الالوان او بسكين الحكّ: آملاً بالوصـول الى روح الانسان وبعدهـا الى قبس من نور الله. فأنا، وكل هذا يدور في رأسي، لستُ نائماً.



١٢ كانون الثاني

استيقظت هذا الصباح. باردة جدا. شعرت بميل للعودة للنوم وسحب الاغطية على رأسي. الضوء الاحمر، وانت عيناك نصف مطبقتين تحت البطانيتين، دفء وافر. ذكّرني ذلك براحة كفِ امي شابةً. جد ناعمة هي.

لم ابق في الفراش. فلدي الكثير لانجزه.

هندريكشة قد اوقدت النار وتناولتُ حليبا ساخنا مع قطعةٍ من خبز الامس. كم احب ان يطفو الخبز على الحليب! اعطيت القَطة بعضاً منه. لعقت اصابعي تشكرني. تيتوس، ولدي، لم اعامله بهذا اللطف. آلمني ذلك. لكني رأيته يبتسم وادركت انه يضحك مني. صفعني على قفاي وضحك وقبل انفي، هو يحب دائما ان يلمسه ويلعب به مذ كان طفلا. هو يدعوني، لما افعله، بالاحمق. ولدٌ طيبٌ هو!



الاحد ١٧ كانون الثاني

كم فخورون نحن الهولنديين. وكم نتباهى باستقلالنا وسط "المقاطعات المتحدة". وكم نعتقد باننا نعتمد على انفسنا واننا لا ننحني الا لله، لا لاحدٍ سواه. لا للانكليز ولا للفرنسيين ولا لاي الاساطيل.

لقد قاتلنا والقينا انفسنا عند اقدام الامبريالية الاسبانية. عانينا واعطينا شهداء ثم خضعنا لنَيْر الدين في روما. لماذا نحن، والحمد لله، ليس لنا حتى ملك، بل جمهورية في بحر من الملكيات؟

انا اؤمن بالحرية ودائما ما انالها. فما الذي اتلقّاه منهم؟ ليَ يقينياتي، مخاوفي واحتياجاتي... ليَ جُبْني وكسلي ورخاوة هذا اللحم البشري علي... ليَ تبجّحاتي العالية وتذمراتي وتطرفاتي وما ازال بعواطفي واحلامي وفورات احاسيسي، التي اثور ضدها احيانا، واحيانا استسلم لها... نعم، انا هكذا نعم!

السيد الوحيد الذي احمده هو عملي. ساخدمه واجهد من اجله حتى اسقط. لن اطلب راحةً لاني ما ازال حتى الان لا اشعر باني اعمل جيداً جيدا كما اريد!

٢٣ كانون الثاني

باردةٌ جدا.



٢٨ كانون الثاني

أكبر شيء مدهش. الجميع ذهبوا الى الفراش، شيء ليس في الحسبان، هذا الشيء سحبني الى الغرفة حيث عُلّقَ عملي الأخير. كان مكتملاً معروضاً، وإلا لكان مكدساً قبالة الجدار ليراه ويشتريه هـ و ت H. & T. (الذين يجب أن اشيد بتعاملهم في هذه المهنة واقدم لهم الثناء. ولكي ارى ثمرات عملي افضل. اوقدت المصباح اليدوي فتراجعت الظلال، قفزتْ الى وراء من كل المنطقة القريبة وتوهجت الشعلة بهيجة، فانسحبت بعد اعادة الزجاجة عليها. ومن نشوة تركت بصري واحاسيسي ينعمان بمائدة ذلك المشهد. ثم رأيت شاباً يقف هناك. كان ينظر لي بعينين واسعتين ومتقدتين. بادرته بالتحية وسألته إن كان يريد شراء واحدة من لوحاتي. لم يجب و لم يتحرك ولكنه أسرَني بنظرته الثابتة. لم أكن خائفاً. سألته إن كان جائعاً ظاناً انه شحاذ بائس يطلب ملاذ ليلة في غرفتي، ولأن جسده كان أقل إضاءة من وجهه، لم اميّز إن كان مايكسوه خِرَقاً أو حريرا. قال: كلا (هذه اول مرة يتكلم فيها وفي صوت آسر جداً، انا لست جائعاً. وهنا تقدم قليلاً ووضع احدى يديه على كتفي والاخرى على صدري. وفي المكانين شعرت كأن مستني النار. جئت لا لآكل او لاشتري، لكن لأُطعِمَ وأُعطي..

اردت ان اسأله ماذا يعني، لكن ما استطعت الكلام. انتبهت الى ان كل ملامح ذلك الشاب تتوهج لا عيناه حسب. حتى اطرافه كانت



ذهبية الوهج وان له جناحين عظيمين يبدآن من ظهره، واحداً نارياً باهتـاً وواحداً اكثر قتاماً. فبـدأت ارتجف، كبر خوفي لكن لم أقوَ على الابتعـاد عنه. كان رقيقاً أحمر الشفتين مثل فتـاة لكنه متين البُنية مثل ابنـة فلاح. شعـرت ان قبضته صارت حديدية ومثلمـا لهب يشعلني حتـى العظـام. سحبني إليـه. زاد ارتجافي وخشيـت ان يلوي ذراعي ويقذف بـي على الارض. لكنـه احس بخوفي وهمس باذني بنغمة ناعمة: لاتخف. لا تقـاوم وكما الثلج ذاب خوفي في شمس انفاسه. استمر في كلامه: انه أنت الذي تعاني معي، تشاركني عذاب الاصباغ والاحبار. أنت الذي تدفع يديك وجسدك وقوتك وروحك لتحتفي بـي. لقد نجحـتَ يا رامبرانـت. تعال دعنـا نحتفل. تشبـث بي اكثر واشتبكـت اذرعنا ورحنا نرقص معاً بين قماشات الرسم والرسومات على الخشب واطر اللوحات وورق الرسم. انطلق قلبي بخفقات قوية حلوة وحلقت روحي. بلطف، بهـدوء توقف صاحبي وخطا مبتعدا من ذراعيّ وقفز في الهواء واصطفق جنحاه وأراني عقبي قدميه. غاب في ريـح قوية وبقيت واقفا هناك انظـر الى اعلى منقطع الانفاس لكن بسلام.

٢٩ كانون الثاني

لم اعمل بجد اكثر مما عملت هذا اليوم ولا احسن ولا اكثر تواصلاً ولا شعرتُ بقناعة اكثر مما شعرت اليوم.

قالت كورنيليا اني ابدو سعيدا جدا كما لو اني رأيت ملاكا.

حتـى الان، لم اخـبر احـدا عـن الليلة الماضيـة، لا خشيـةً من ان يضحكوا مني ولكن...



٨ شباط

رأيت اليوم زنجيين فوق القنــاة. يتزحلقان. يشبهان ضربات قلمي على هــذه الورقة. ومثلها حــذِران. لكنهما يبـدوان حازمَينْ بالرغم من "عصبيتهمـا" وتحديق الانظَار. ضحكا كثـيرا، يُظهران لسانيهما الحمراوين. لكن ظل وجهاهما حزينَيْن وشديدَي الرصانة.

لم يعــودا عبدَيْــن مثـل اخوانهما. يبـدو انهما خادمــان عند احد اللوردات فهما اكثر ترفا وان بعُدا عن وطنهما وقسى عليهما البرد.

رضيا ان يجلسا امامي للرسم على ان اتفق وسيدَهما. لذا سارسل هندريكشة لتؤمّن ذلك او ارسل تيتوس ان كانت مشغولة جدا.

شخصيا، غـير مبالٍ بأن اتفاهم مع النبالة هـذه الايام، فقط حينما يدفعــان لي اذا طلبوا مني عملا. طلباتهم فخمةٌ دائما وان كان وراءها تعب.



١٠ شباط

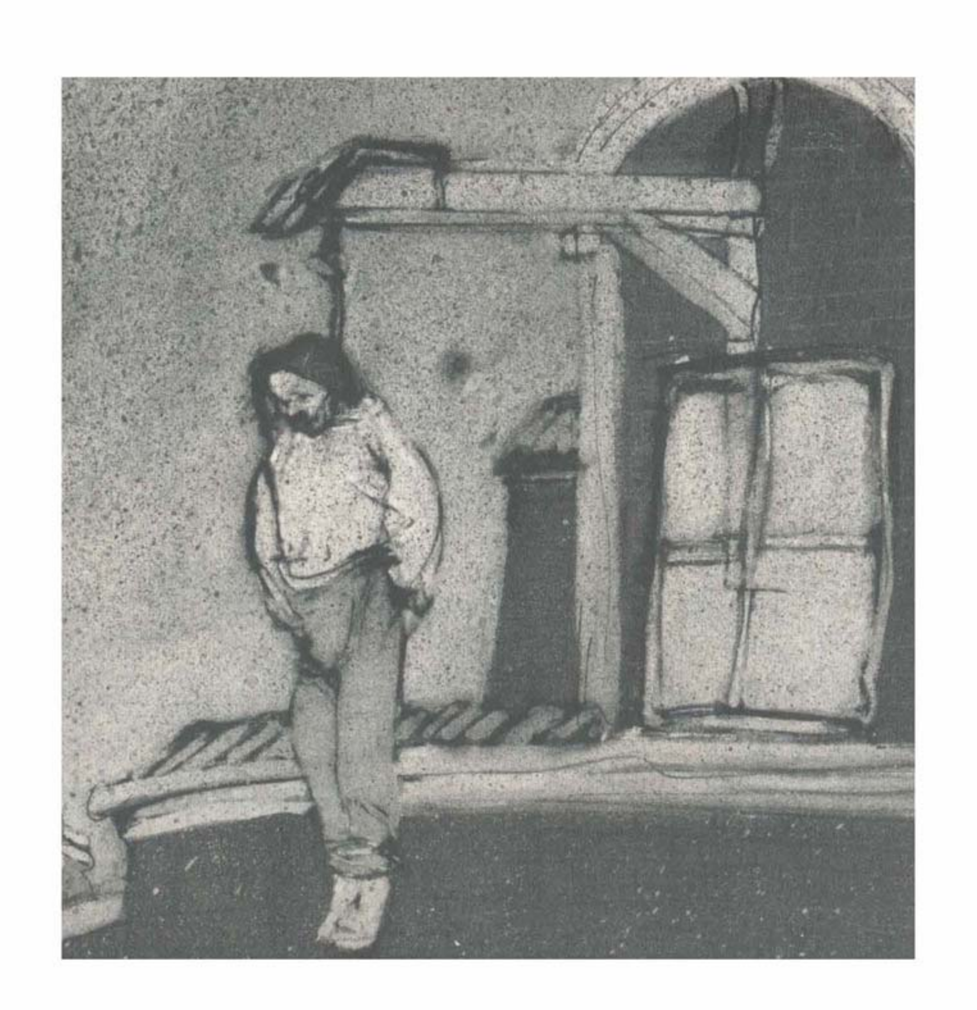
اليــوم، في ســوق السمــك. سمكة رنكة علــى الارض. وسخة لكنــي التقطتها. أنا ولوع أحب هــذا النوع من السمك. واحد من بائعــي السمــك رآني. كانت السمكة قريبة مــن كوم سمكه. صرخ بــي. أحببته بكل أدب ان السمكة لم تقفز من كومه. لكنه لم يستمع لي وراح يدعــوني باللص.. تقدمت بالسمكة إليــه مقابل ان يوقف ضجيجه.

زوجته، طلبت منه (صوتها اعلى من صوته) أن يصمت. وقالت لي يمكنني الاحتفاظ بها. ثم تبعتني وقدمت لي بضعة قروش. أخبرتها باني رجل شريف، رسام، ولست متسوّلاً. لكنها ضغطت قطع النقد علــى يدي وقالت: حسناً حتــى الرسامون يجــب أن يأكلوا، أليس كذلك؟ كانت لها وجنتان جميلتان، لها وجه باسم وخدان مشعان مثل تفاحتين طازجتين.

رحت اعمل بعد الظهيرة وبقيت اعمل حتى غرُبَ ضوء النهار. كنت ارســم النهر وبعض الأشجــار اللطيفة مــن ذاكرتي. يبدو اني كنت ارســم أشجاراً حتى قبل مولدي. يبــدو مضحكا اني لا ارسم أشجاراً هذه الايــام. صرتُ أُفضِّلُ الناسَ الاعتياديين. أولاء يمكن ان يكونــوا كالاشجار، هم ايضاً طوال واقويــاء، او نِحاف ومُنحْنون. علــيَّ الان ان اتوقــف لتناول العشــاء. هندريكشةَ هيّــأت طبقاً من الرنكــة والبصل. فرِحٌ اني توقفت عــن العمل. لقد كان طبقاً لذيذا.

هندريكشــه طيبة جداً معــي. القطة ايضا سعيــدة بحصتها. دفء، ضوء شمــوع، ضحــك وأولاء الذين تحبهم ويحبونــك. ماذا يريد الانسان اكثر من ذلك؟





١٨ شباط

البَكْـرةَ والرافعـة المتصلة بالعارضـة. تتدلى من أعلـى بيوتنا حتى تلامس أثاثنا. هي تذكرّ الانسان بأيام المشانق. أياماً اراهم ولايرونني، اياماً يرونني. اليوم كان كذلك. المشانق في كل مكان. مع ذلك لم اكن اشعر بما هو استثنائي. جـو الاكتئاب فقط زاد من غرابتها رجل يتدلى او امرأة، مشهد موجع. موسف جداً.

لقـد شاهدت كثيريـن يُنَفَّذ بهم الاعـدام، رسمتهـم، يُشَلّون عن الحركـة، كيف كانوا يُسْحَبون. امتهان لمشاعر الانسان، لمحبته. حتى إن جثة لاحياة فيها تتحول الى قطعة أثاثٍ تتدلى..

كم أودّ ان ارى مرةً ثانية إنساناً بجناحين!

٢٦ شباط

راقبت صبياً يرسم كلباً بعصاً على التراب. أثار عجبي. دائماً يثير ذلك عجبي. العالم كله يصنع صوراً. الصينيون، اليابانيون والفرس. ليس أقلّ منا نحن الاوربيين. لماذا، حتى اني رأيت مستَنْسَخات لصور على غرار التي كانت في بيرو قبل ان يحرق الجزويت كل ما وجدوه تقريباً بدعوى ان ذلك من الإلحاد. شخصياً لا أمتلك أياً منها لكني امتلك بعضاً من الرسومات الشرقية اللطيفة.

حين انطلقت، الى الخارج، أُفعِمْتُ دهشةً من اولئك الذين سلكوا الطريق قبلي والذين أقتفي الآن آثارهم. لو أن لي قسماً من الرحلة، وقت اعاداتِ الانتاج والطباعة، او كانت لي، إن كنت محظوظاً، النسخ الاصلية نفسها. كم أتذكر الآن جيداً رأس رافائيل، ذلك الذي رأيت في صالة البيع، وكذا البورتريت التي رسمها تيتيان والتي امتلكها الفونسو لابيز واليهودي الساكن هنا. بعد هذا، وإن كنت لم أرَ أياً من اعمال كارافجيو العظيم حيةً بلحمها علي ان أثني عليه لاستخدامه الضوء والظل. وأثني على رجاله ونسائه الذين لايشبهون الالهة الحجرية، او مادة الاحلام، او المعتقدات، لكن لهم الجلد الحقيقي والعضل والقوة والضعف ايضا. علي ألاّ أنسى رجال الشمال. دورر، صاحب المهارة التي تخجل الكثير من الرسامين الآخرين، كراناك، هولباين وفلمنجر، روبنز، فانديك وبروخل..

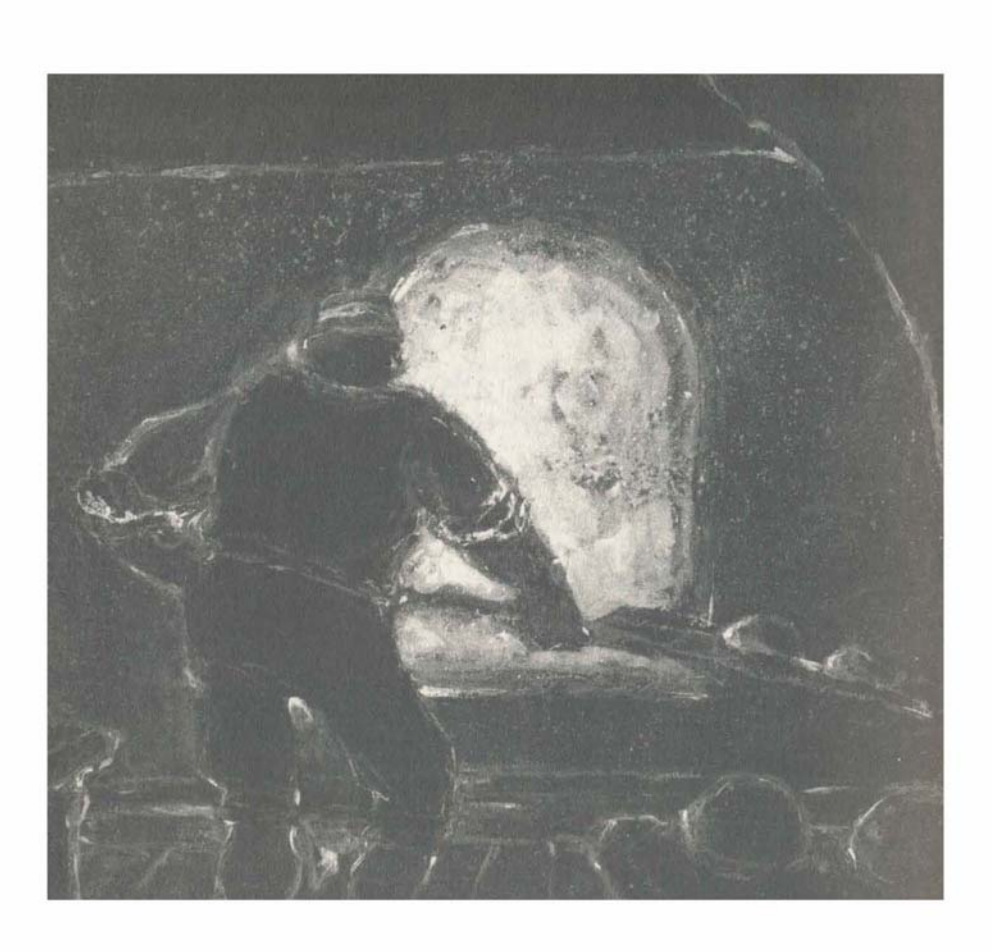
كيف أعتدت على الشراء حين نمت ثروتي؟ هنا ينبثق في الذهن

اعظـم كتـاب لرسوم اندريـه مارتجنـا الشخصية. أثمـن الممتلكات. وهنالـك اعمـال جميلة كثيرة وأشيـاء اخرى منوّعـات. أحب دائما النظـر الى الفن. لا لأرى العمل الفني حسب، ولكن لألمسه، و هكذا غالبـاً أشتريـه. لكن عليّ الاعتراف الان بـان مختاراتي قد مضت الآن لاسدّد للدائنين. انهـا ضحية إسرافي، استداناتي ومضارباتي الحمقاء. لقد سهل لي بايليف هارنغ عبور حياتي. كم جيداً اتذكر الآن اسمه.

حـين اعلنت المحكمة ان يجب علـيّ، اردت وانا في سورة اسفي وغضبـي ان اكسـر الحاجـز (كما فعلنـا في الخمسينيـات ضد جيش الامـير وليـم) وان أثير المدينـة ليوقفوا سلب ممتلكاتـي. لكن الحكمة وهندريكشة انتصرتا. واخذ القانون مجراه. اتذكر انهم باعوا في المزاد حتـى المتحجرّات، وباعوا رمحاً افريقيا، أحبه بكل روحي. ماتزال كل هـذه الاشياء باقية فيّ. البهجة التي تمنحها لي لا تُشْتَرَى ولاتُباع. ليقل مـا يشاء مالكوها الجـدد، فأنا امتلك نصـف الاحساس الذي تعطيه، فليكونوا بها إن شاؤوا اسعد الرجال.

ربمـا كنت احب الاشياء كثـيرا، لكني احبها لما تعطيـه من ارتياح وجمال لالقيمتها. انا احتقر النقود، والقصص التي تقول ان تلامذتي كانـوا يصبّغون قطع النقد على الارضـ كيداً لي ولكي يسخروا مني، هذا كلام، ببساطة، ليس صحيحاً.





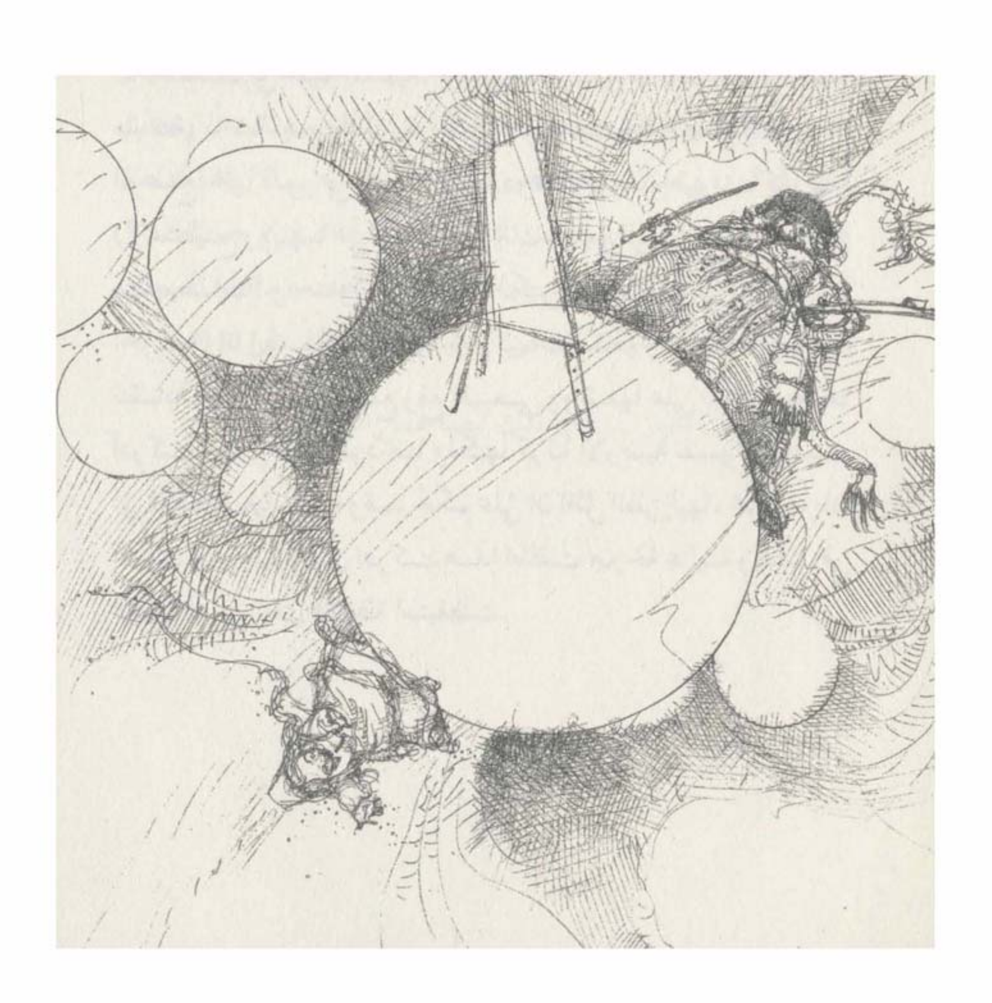
٤ آذار

توقفــت اليوم أراقب الخباز في عمله. كيف هو ينضح عرقاً، كيف يدفــع بـ مجذافه الخشبي داخل خارج التنــور الكبير. وباستمرار يغذِّي النار بالوقود، ويمدّ التنور بالعجين. اراه دائما يسحب الارغفة محمّصة الحافــات، يطعــم المجموعات المتزايــدة من الجائعــين وحبّات العرق تجــري سواقي ناعمةً علــى وجهه المرشوش بالطحــين. هذه السواقي الناعمة الصغيرة صارت اكبر من اوردته وهي تجري على ذراعيه.

جدي كان خبازاً. وكان ذلك ايضاً عمل أمي.

١١ آذار

حلمت في الليلة الماضية. كانت هناك كرة أرضية هائلة، صقيلة ملونة، لمّاعة تشع. هي مثل تلك التي كنت املك قبل ذلك المزاد المزعج. انها تدور في السماء الليلية دونما اشارة أو صوت. كورنيليا (لااستطيع رؤيتها هي ايضاً): اين انت يا ابي في كل هذه الاصقاع والمحيطات؟ واحاول ان اجيبها لكن كل شيء كان في دوار من الحركة. انا ايضا كنت معبَّأً بكوكبات مشعّة ومذنّبات وكرات تتقاذف فيّ. لذا لم استطع رفع اصبعي ووضعها على المكان. بعدها أدركت انها لم تكن أنموذجاً ولكنها كرتنا الارضية نفسها، وعلمت اني قُذفْتُ بعيداً عنها وقد حُكِمَ عليّ ان اظل انظر إليها، محكوماً بان اكونَ متفرّجاً. حين ادركت هذا اطلقت صرخة عالية وبدأت في السقوط. في تلك اللحظة استيقظت.



٢٠ آذار

نهـاري علبـة عواطف. ذهبـت الى منزله عصر هـذا اليوم، عصر تلميـذي النافر. في محاولة لإقناعه بالعودة الى عهدتي. هذا لا يعني اني افضل صحبته مُطْفَأ النباهة هذا مثلما افضل أجورَه. هو ابن رجل ثريّ وكان يدفـع جيداً. اما بالنسبة لموهبته، فليـس هنا مايدعو للبكاء على افتقادها. لم يصغِ إليّ مدّعياً انه يفضل الحياة الحقيقية، كما هو المتسكعّ يسميها. هو يفضلها على الانضباط والرهبنة، حسب الفاظه. ليس في رأسه طبعا غـير مغريات ما وراء الزجاج والملـذات الجسدية. أنتفض وبفظاظـة خيّـبَ جهـودي لارجاعه الى الحظـيره. منتقـداً بأرخص الحجـج والحـركات رغبتـي في إعادته. يَغمـزُ مشـكّكاً بحقيقة كل مـا ظـل من اسباب. فمـا كان لي بعد ذلـك إلا ان صرخت في وجهه معترفـاً، ودعوتُه بالصبـي العاق والمليء بالوحـل. صعّدَ من صراخه. أخيراً جمعّت ماتناثر من شرفي المنتَهَك وانسحبت.

يمكنـك تصوّر خيبتي. في عودتـي الى البيت وقد صحبتني مهانة الـروح والسخرية الصبيانيـة، وإذا بي امام الكثير مـن الريش منتشراً حـول غرفة عملي. صرخَت: لقد كان هنـا، الرجل المجنح كان هنا، ولم أكـن لأحييه! الريش الذي بـدا انه قدم من حيث الزغب في قاعَيْ كتفيـه، قد تساقـط في فوضى، كأنه كان غاضباً مـن غيابي. لابد من انه شعـر بالاهمال. عرفت شعـوره ذلك تلك اللحظـة. لقد شاركته شعـوره، لاني جربتُ لحظـاتٍ كهذه. نعم شعرت اوقاتـاً بالهجر مع

وجـود هندريكشة وتيتوس وكورنيليا. ليغفـر لي الله. شعرت بالاثم، اثم غيابي. و انا الآن مفعم بالأسى. كنت متأكداً من ان الرجل المجنّح شغلَهُ امـرٌ عظيم الاهمية فغادر من اجله، وانـه غادر بقوة وبخففقات سريعة من جناحيه، غـادر بسخطِ ملائكي. هل سأراه مرةً أخرى؟ أنا المَلوم! كان يجب ان اكون هنا.

تبـدو متطلبات السوق لاشـيء الى جانب محبتنا. لـن اذهب ثانيةً استجدي تلميذاً، ليأتوا هم الي بمحض إرادتهم.

وبينمـا أنا اندب وآسى لمـا حصل، جـاءت هندريكشة ضاحكة لتخبرني عن زوجـة جارنا، التي سهت فوضعـت الدجاجة في القدر قبـل ان تكسـر رقبتهـا. المخلوقـة هائجة ققـزت من يديهـا. طارت بحريتهـا ناشرةً حفنة ريش في انطلاقها. ظهرت الدجاجة في بيتنا بعد ان طـارت ودخلت من نافذة مفتوحة. لقد مرّت مرتعبة مضطربة بين قماشات رسمي وعُدَدِ عملي في محاولة يائسة للنجاة. محاولتها ذهبت سدى.

إذن لم يكـن الرجل المجنح ولا ريشـه. لذا قدّمتُ للدجاجة عميق شكري.

الدجاجة خسرت حياتها،

انا خسرت كرامتي مع الولد الوقح.

مع ذلك مازال لي أفراد عائلتي وصديقي وهذه ثروات لا تُضاهى.





٢٤ آذار

توجهت عصر هذا اليوم لصديقي أفرام موسى داكوسنا (أو بن باروح كما يدرجون على تسميته بالعبرية، قيل لي ذهب يستطلع في الجوار. خادمه اعلمني بانه قد يعود في أي لحظة. قررت الانتظار، مادمت انتظر، قلت اشغل نفسي بالحديث مع عراف يهودي من بولندا. سألت هذا الرجل إن كانت ستمطر ام لا تمطر. نظر الرجل الى السماء، قدّرَ، ضرب رأسه الغليظة، وعاد يقدّر الأمور. بعد مدة تكلم. قال: نعم و كلا. قلت ماذا؟ لم يكن خوفي هادئاً، استمر: نعم انها بالتأكيد ستمطر في وقت ما. غداً، بعده، من يدري؟ لا مفر من ان تمطر إذا شاء الله ربنا ذلك. بالنسبة للوقت الحاضر، لا يبدو الأمر محتملاً لأن الغيم ينجلي في الشمال الغربي.

هذا ما يثيرني دائماً، ومن هنا صعوبة أن اسأل يهودياً. هم اما أن يجيبوا عن سؤال آخر، أو يعطوك احتمالين او اكثر. في الجواب الواحد دائما خياران، دائماً ما تظهر لهم عدة جوانب للشيء الذي يرونه. وإن كانت لهم احادية تفكير في مجمل ما يقولون. لكن هل يستطيع احد ان يؤكد ان اليهودي تام الاصغاء لك حين تتحدث إليه؟ أم أن قسماً منه فقط يعطيك انتباهه بينما القسم الثاني منه يقيم في الماضي والثالث يتجه الى المستقبل؟ وهل يسهم هذا فيما يوسَمون بهَ من تحفّظٍ ومراوغة؟ شخصياً لم اصادف واجداً منهم اكثر التواءً في تعامله معي اكثر التواء من هولندي أوفلورنسي او من غير اليهود، كما ان لي بينهم العديد من الاصدقاء. عجيب امر هؤلاء الناس، ابناء

التــوارة اولاء، يعيشون هنا بيننا في امســتردام ويسيرون في الشوارع نفسها ويتنفســون الهواء نفسه وهم قبيلة ابراهيــم وسليمان وبلقيس الجميلــة واقرباء المسيــح نفسه! وانــا افكر بالحديث عــن الطقس مع واحد منهم، اجداده جابوا رمال الصحراء وتلال الجلجلة الخضراء. لا عجب ان تكون في عيونهم نظرة حزينة كسيرة، غالباً ما رسمتُها. هي ليست لايقين اليوم ولكن مــا في ذاكرتهم عن المكان الذي قدموا منه وما يصحبه من ألم المنفى. فمن الحكمة ان يتشمموا ريح المستقبل. اذاً مــاذا بعد هولندا والى اين؟ انهم ممتنون لملجئهم هنا. لكن كيف ليهود المدينة اولاء القادمين من ايبريا ومن اقطار شرق بلادنا، الذين يسخرون مــن استجوابهم امام المحرقة ومن الموت جوعــاً في بولندا والاراضي الالمانية كيف لهم التاكد من ان سلامهم اليوم سيدوم؟

حــين جاء افرام: اخــيراً سألته ان كانت اموره علــى ما يرام، قال: اتمتع بصحتي، وهذا جيد. صحتي تجعلني انسى تعاسة الاخرين.

كلام سيء!



٢٧ آذار

وانـا امر في الزقاق اليوم، سمعتُ صيحةً خشنة: هي، انت ياوجه الجِبْن! توقفت حالا وتلفــتّ، لكنني لم الحظ احدا. كان الزقاق مقفرا تمامــا. لكن كانت هناك نافذة مفتوحة تطــل عليه. اذ ذاك كنت كمن ينبــت في الارض ثابتةً جــذوره فيها. وكنت في خوف من السير، من ان ارى او اسمع او من ان اصرخ. شعرت ان من الحمق الكبير ان اظل واقفا هنــاك والصيحة التي سمعت تدور في رأسي بطريقة غير مريحة ابدا. وجه الجبن القديم، وجه الجبن القديم! مضت الصيحة وبقيت انا محمرّاً وقلبي يخفق عاليا موجعا.

بعد مــدة شــددت نفســي وانطلقت ثانيــة في طريقــي، وبسرعة وصلت الشارع الصاخــب المندفع. مع ذلك فما زلت تنتابني خَضّة. هكذا، لساعات.

أي امــر مربك، صيحة تستلب هدوئــي بهذه الطريقة. امر غريب أما إذا كانت صيحة تائهة لا تقصدني ولا تعنيني، فتلك غرابة اكبر..



٢٩ آذار

صيحة طائر البحر اجتذبتني فتركت عملي نهار هذا اليوم. نحيت حاملة لوحاتي، فقد لا مستِ الصيحةُ اعماقي، أثّرت كثيرا في، تأثيرها غمر منطقة مظلمة من نفسي. لقد انبثق الصوت من انحاء غريبة، جنسية وسحرية مثل الوان المغربيات، الوان ابتدعتها الشمس التي لن اراها يوما. انبثقت من معرفة وراء الكلمات، وراء ضربات الفرشاة.

كانت صيحة مهددة مربكة كما التفكير باللانهاية.

اغرورقت عيناي بالدموع واحتُبِسَتْ انفاسي في صدري. والان، وكما الامر في شبابي، حبي لغموض واقع الحياة يجتذبني، يناديني، ينادين، هذا هو الشيء الذي لم يهن او يتلف بذبول جسدي.

لم اغادر عبر البحر ابدا، وحتى لم اسافر خارج هولندا. ليس غير ذهابي من ليدن، حيث ولدت، الى امستردام. وهذه ليست اميالا كثيرة، ليست بعيدة، لكني سافرت كثيرا داخل نفسي وقطعت مسافات على طرق القلب الشاسعة وعلى الطرق التي ترتحل عليها الروح. تلك مسافات لا تحد تخومها الا الصخور التي تبتدع فيها يداي وعيناي وليس غير نقاط البوصلة بوصلة حبي الذي يكافح ليكتمل.



١ نيسان

يوم كل الحماقات.

أي سبب، غير اسمي، يجعلني اليوم مختلفاً اختلافاً جوهريا عن الـ ٣٦٤ يوما الاخرى؟

ثم ان الطريق الى الحكمة الحقيقية هو ليس الرثاء للمخلوقات امثالي.

من بعد، هللويا! عاد الرجل المجنح! كان صادقا في وعده. وبّخني على شكوكي بعودته. جلسنا معا واسترسلنا في حديث طويل.

٦ نيسان

رضيــت اخيرا برسم فتيات من اولئــك اللائي يدفعن لتعانقهن.. كان هــذا الشرط ضمن الاتفاق معهن قبل بــدء العمل. عمل مبهج، كثــير البهجة معهن لا تعترضــه نشاطاتي الاخــرى. كان بينهن فتاة حلوة الردفــين من بروكسل. ما كان تعاملي معهن تجاريا، فقد كنت اميل للواحــدة منهن تجلس مثل أمرأة من روما على كرسي اعتراف، تتحدث لي وتبوح بما شاءت من اسرارها.

كان في الطابق السفلي كثير من الموسيقى والرقص والشراب حتى شعرت بالرغبة في مشاركتهم تلك السعادة (فاندفعت بغير اعتدال).

كانــت هناك امرأة، عرفتها. كانــت ترعى صديقة قديمة لي. حال شعرهــا الاصخر (الاحمــر المسمر) رماديا. لكنه مــا يزال يسمى رد ميــلادي Milady Red (كمــا كان يطلق على موضــة تلك الايام.) تعرفت على هذه المرأة في شبابي. بسرعةٍ وصلَتْها الاربعون..

اول زيــارة لي لهــذه المدينة كانــت حين جئت لادرســ فيها ستة اشهــر على يــد لاستمــان Lastman. دمي الاخضر شديــد الغليان، والصاخــب بالاحلام والاعمال التي لم تنجز، وجد منطلقا في وهج واثــارات تلك الشــوارع. نساء، شــرب، مســارح واكتشافات من شتى الانواع. بين تلــك كان قرع رنين الاجراس الاتي من كل تلك الكنائســ. اصوات تلك الاجراســ كانت تشرق في دمي مثل ازهار

الربيع، وكانـــت بالنسبة لاذني، التواقتين لسماعهـا، مثل ابواق تعلن شهرتي وتكشف عن منجز سوف يأتي!

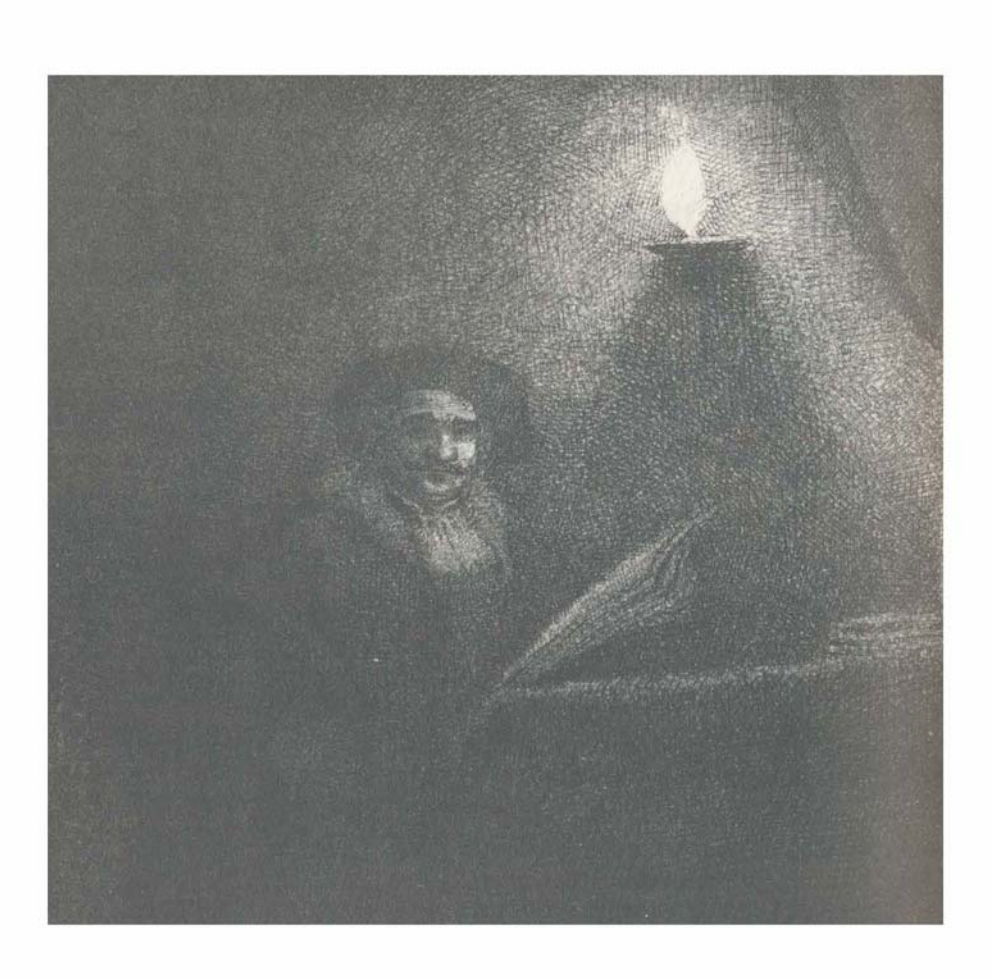


١١ نيسان

وحَـلَ الربيع فعـلاً، لا اسماً. فقد بدأ الهواء يَطْـرى ويدفأ وراقت ضوضاء الشارع واستجـدت، فكانت مثل احتفاء بنهاية الشتاء، وقد تجددت الوان الاشياء في الدنيا..

في بعض الايام اشعـر برغبة في اخذ حامل لوحاتـي والقماشات والاصباغ الى العراء لاعمل في الهواء الطلق. اتساءل ماذا يقول الناس عنـي؟ سيهـزون رؤوسهـم، وربما سيجـدون سببا اخـر يؤكد ظنهم بجنوني. هي حجة اخـرى لهم على خَبَلي. اما بالنسبة لاولئك النقاد ولاساتذة الفن، فسيجدون وقودا اضافيا لايقاد ازدرائهم وسخريتهم. لكنهـم لا يفهمون شيئـا على الاطلاق! اذا لم افعـل ذلك، سأسحب الجدران وأطيـح بها واسقط السقوف الى الارض (واثناء ذلك ايضا سيظل اهتمامي بظلال جميلة قد تأتي).

وبالرغم من الايام الطويلـة التي مرت، ما ازال بحاجة الى شموع ارسـم على ضوئهـا، افضل الشموع على القناديـل الزيتية فهذه تترك في العيـون دبقـا وان كانت اقل كلفة. فضلا عن ذلـك، افضل الرسم في الليـل يحيطني بحر لا نهاية له من الظـلام. يرى ولدي تيتوس اننا نصرف نقودا على الضوء قدر ما نصرفه على الطعام. فقلت له: كلاهما يغذي الانسان.





١٩ نيسان

مـــررت بدار العجزة. بناية كبيرة على جدرانها اقوال واشعار وافكار تدعــو الى الخــير وتكشف عــن البركات التـــي تعقب العطــاء وكلام عن فضائل العمر السابع.

تساءلــت ان كان جميــع أولاد النــزلاء يشتركــون في حســن واحــد يجمعهم وانــا ارى عددا منهم يلتفون بأسمالهــم ويقتعدون الارض في شمس واهنة.

بدا لي ان ليس بينهم اثنان يتحدثان واحدهم مع الاخر.. لا حوار. هم في هذا لا يشبهون النساء العجائز. فكرت: كم هي السنوات القادمة التي ستقودني الى مكان كهذا مُعوِزاً ووحيدا؟ لكن كلا! هندريكشه وتيتوس اصغر كثيرا مني ولن يدَعــاني اذهب الى هناك. كما ان كورنيليا اقسمت ستتزوجني حين تكون في سن الزواج. اذن ليس هناك ما اخشاه.

مع ذلك، فبالنسبة لكثيرين لاعوائل لهم ولا مأوى، بسبب (ولادتهم) او بسبــب ســوء الحظ، هذا هو اول مكان ثابت لهــم. واولاء لم يأتوا الى هــذه الدار لانهم افتقدوا محبة ابنائهم لهــم، ولكنها الحاجة الجأتهم لهذا المــكان. النسوة اللائــي يعنين بهم يعملن الكثير صادقــات. حتى اذا بدا اهتمامهن خشنا، فعملهن يمتاز بالتقوى.

ولكن لن تصل بي الامور الى ذلك الحد، فوالدي مات في آب ١٦٣٠ ، في اوج ازدهار عائلته..

٢٨ نيسان

بعد طول انتظار ظهر الربيع وتفتحت ازهاره وافطرت عيناي هذا الصباح بوروده. وبينما انا اغطس واتأرجح في نسيمه المضيء (هذا ما يقولونه عني لا ما اقوله)، امشي واتأمل فيما شاءت الاقدار، صدمتني فكرة طارئة. فكرت: قيل ان هناك وردة تركية نادرة، هرع إليها ناس هذي المدينة ألوفا واعتركوا بوحشية يطلبونها، ليحظوا بامتياز الوردة النادرة دون ان يروا غرابة في السلوك والمسعى هل كانوا يرون في ذلك فضيلة؟ فلم لا يرتضون إذن بما انا مدين به لهم في لوحاتي. هي بعد كل شيء نتاج انسان كادح لا نبتات طبيعة يرعاها الله ثم ان لوحاتي، وهذه فكرتي، لن تفسدها النقود يوما..

انا بالتأكيد، وفي الاقل، استحق ما تستحقه زنبقة (لو كنت مثلها جميلا)..

٣٠ نيسان

هـذا اليـوم، او في اليومين الاخرين دارت اشاعـة ان الطاعون قد عـاد. سمعـت ذلك اول مـرة حين توقفـت عند كشـك لاتناول ما ينعشني. يقولـون ان اسرابا من فئران بحجوم القطط تتجه الى المدينة، لا النار ولا الماء ولا الصلوات تصد جيوشها الزاحفة.

كان النـاس حوالي شاحبين او يتشكـون او يبصقون، كل وحالته، حتـى كان بينهم من هم من شدة خوفهم يضحكون. امرأة شابة تحمل رضيعا اغمي عليها وراح زوجها يضرب مربّتاً على يدها، بينما طلبتُ لهـا شيئاً تشربه وانا اربّتُ على يدها الاخـرى. شخص ممتليء صدَمهُ التقريـر الذي يتناقله الناس فابتعد لينسى انه في مكان عام وراح يرسم الصليب علـى نفسه.لكن لم يكن بين الناس مـن يجرؤ على مضايقته ويؤدي له ذلك الدور البابوي قبل الموت.

بالنسبـة لي، لم ابال بسمـاع ذلك، فلن يهزني مثـل ذاك اللغو، ما سيكـون سيكـون، ونحـن جميعا سنخلي هـذه الارض الى سواها بطريقـة او بأخرى. مع ذلك كنـت اشعر بأنّا يمكن ان نفعل اكثر لصد هـذا الطاعون الـذي يكرر اكتساحاته لبقاعنا مثـل مدّ قذر. لا اعتقد بأنها ارادة الله، بـل في وسع الانسان اكتشاف قارات جديدة او يجد سداً اكثر ثباتـاً يصد مجرى البحر الذي هو ايضا من بين اشياء الطبيعة. بعد ذلك بالتأكيد سيجهدُ فِكْرَهُ لاتقاء الفيضان والعذابات والموت.

ان لم يكـن ذلك فحتى يحـين، ليس لنا غير ان نتهيأ وارى ان نكثر

جميعنـــا من اكل الثوم ونأتي بالزفت والفسفور لنطهر غرفَنا اذا ما أتى الوباء فعلاً.

انه تيتوس وكورنيليا من اخاف حقاً عليهما.

سواء كانت اشاعة ام لا، شيء واحد اكيد على كل حال. الصيادلة، باعــة الراتنج المسكّــن وجُرَعِ السمــوم وباعة الرُقــى سوف يجدون موسمــا ممتازا للعمل في الايامَ القادمة، كذلــك صيادو الفئران. ولعل اولاء هم اول من اطلق هذا اللغو..





٣ أيار

عينـاني تؤلمانني هذا المسـاء. عليّ أن أتوقف عـن العمل مدةً حتى يستريحا. عليهما غشاوة والألوان تختلط.

تمـرّ عليّ ايام أخاف فيها من العمى، ليالي أحلم به فاستيقظ مرتجفا عاليـةً ضربـات قلبي. مـع ذلك، حتى لو عميـت، سأظـل أرسم. أنا أعرف الالوان من رائحتها. أصابعي تعرفها ايضا. الالوان بعض مني، هي بعض مكونات داخلي. وأنا مثل حَمَل يعرف كيف يرضع وأين.

غسلتِ عيني وسأعود لأرسم. هندريكشه تتوسل أن أستريح. لكن كيـف يمكن لي هـذا بحق شمشون؟ اسمعك، لكنـك، مثل من يدور حول جدران معبد، في داخله ناس غير مؤمنين!

٨ آيار

سقطـتُ مثل ثمرة من غصن، مـن دون اي ألم، كأي مادة زائدة. طبعـا هرعت الى أقـرب مـرآة لأرى ان كانت قد تركـت تشوها في منظري. يصعب القـول، فأنا كل مرة أنظر فيها لنفسي أجدني مختلفا: الملامح، البشرة، جذور اللحية، الغضون..

ضبـاب عـادة يضيع وجهي ويغـيره ويموهُه مثل مـاء حول عوامة أنفي العظيم والخالد. حتى تبـدو عوّامتي لمن يلتفت الي كأنها آتية من الاعماق. حـالات مختلفات، حالة وراء حالـة، مستمرة. وهذه اليوم حالة أخرى. ما الذي يعنيه ذلك تماما؟ لا استطيع حقيقة أن اقول.

الناس يلتفتون ناظرين الي. ماذا يعني هذا؟

علي أن انتظر:

ادراك؟ تعجب؟ ازدراء؟ حيرة؟ تجاهل؟

لكن لماذا و مم؟

أم هي دهشة الناس التي ما تخلصتُ منها أبدا منذُ ولِدْت دهشتهم من وجودي بينهم!



١١ آيار

هــذا اليوم كنــت افكر بوالــديّ، وهو مــا افعله غالبــا. تغمد الله روحيهمــا برحمته. كنــت أكسر خبزا فــتراءت لي طاحونــة أبي مرة اخرى.

سمعــت قرقعة الخشب علــى الخشب بينما القضبــان القوية تقود الاشرعة بمساعــدة الريح. تدور بانتظام في الهواء مثل سرب ملائكة.. تذكــرت بخاصة الطريقة التــي يرتفع فيها غبــار الارض فيتراقص في خطوط ضــوء الشمس عبر البرج المظلم. هــذه اول ذكرياتي واكثرها حضــوراً. خيوط الشمس هذه، والتــي اجدها مرة، واخرى حضرت في أعمالي، كما لو كانت تُسْتَدعى، فعالة مؤثرة، من ضباب الماضي.

ايضاً، تلك الارغفة "اللوفز" التي اعتادت امي على خبزها. تفوح بشذى دافيء لذيذ. كيف ياالهي "تحمصتْ" بهذا الجمال! الناس هذه الايام لايعرفون يصنعون خبزاً.

اتذكر يــدَيْ امي تضوعان من فوح العجــين ووالدي من الحبوب والنخالة. بخاصة الشعير فقد كان يصنع منه جعةً.. كانت قويةً، مُجِدَّةً وفخــورة وشريفةً ايديهما، طاهــرة تليق بفتح الكتــاب المقدس الذي يتلوانه بعد وجبات الطعام كل مساء بابتهاج وشكران.

ايــن هــذان الصالحان ممن اتذكرهــم، من يُسمّــون انفسهم رجال الله؟ اذكر كان ابــي يحدثنا عن الكتاب وكان يتلو عن ظهر قلب اكثر

مما يقــرأ، بينما تلك الشمعة تترك ظلالها على الجــدار. يقول ابي انها تمثّــل رئيس الملائكة. ان الله ارسلها لبنــي اسرائيل ليعلن عن خلاصهم وخلاصنا جميعاً.

لكــي تكون رساماً تحتاج ايضــاً الى يدين قويتين مثلهما. تحتاج الى باصـرة وقلــب قوي. وانا اكتب هــذا ادرك كم متعَبَتان يــداي وبدأتا تُبطِئان. هما لاتؤلمانني وانا اعمل، لن ادعهما! هما يشعرانني بتعبهما بعــد ان انتهــي واضع جانباً ادوات عملي. حينهــا اشعر كم متيبستان همــا وباردتان، فانفخ عليهما او ان هندريشكة تمسدهما لي. ساسكيا مــن قبل ايضاً اعتادت تفعل ذلك. اتذكر في ليلة زفافنا، اخذت بيدَي وقبلتهمــا بلطف، بأســى قليل، قبلتهما واحدة واحــدة واوصتني بأن أعنى بهما، فهما بالنسبة لها ثمينتان كما لو كانتا يديها.

١٥ آيار

ضحكت اليوم كثيرا. احدثتُ تغيرا في حياتي.

فمع ان الريح سيئة رطيبة وبدأ ازعاجها منذ الفجر، لكني ذهبت الى العرض ومعي عائلتي حيث اتخمنا أكلا وشربا. كان هناك الكثير مما يغري وما يؤخر والكثير من اكشاك البيع المثيرة للشهية، والكثير من اللحوم المشوية والسمك المسقوف على عصي وكعك المازيبان وكل انواع الحلوى وهل يجب ان اذكر الشنابز وانواع النبيذ الاخرى.

هندريكشة في غمرة السعادة، ترتفع خفيفة على العاب القفز ذات النوابض، لكن كورنيليا، يا للعجب، بدت ملتمة الوجه قليلا بسبب وجع في معدتها. اشتريت لها دمية محشوة بالقش لالهيها عن وجعها. كثير من شقلبات الاولاد وصيحات الناس التي تذهب فيها هبات الريح. كثير من الاندفاعات للامساك بأشياء وشدّها اليهم خشية من الانفلات. وفي كل هذا ضحك كثير وصرخات تنبيه واستمرار يظهر تصميما على مقاومة النكايات والمقالب. كما واجهنا الكثير من لطمات الثياب المعلقة في الاكشاك والاصطدام بالمخيمات. كم من الالوان كانت هناك تتماوج في الفضاء،

يا للمجد!

الجميع زادت اعمالهم وارباحهم، ليس أقل من غيرهم البغايا والنشالون. وهناك واعظ يصل بالقطار، ينبهنا ألاّ نترك انفسنا على

سجيتهـا.. لكني تمتعـت بالبهلوانات والسحرة ولاعبـي الاكروبات والرجـل الذي يتنفس وينفث اللهب. كم مفيـدة يمكن ان تكون هذه اللعبـة! استطيع الان ان أفكر بمواقف كثـيرة واشياء يمكن ان تكون في متناول يدي.

لكـن الاهم من كل ذلك هو فريـق الممثلين الذين قدموا على منصة جوس فانلن فوندريل قطعة مشهورة هي جزبريخت أمستل.

جمع من الممثلـين يتمشون، واكثر منهم اولئـك المتبخترون الذين يريـدون اللحاق بهم، حتى ينتهوا اخيرا علـى ركبهم يؤدون ما تتطلبه منهم المناسبة من ادوار.

كان بينهم ممثلة واحدة. امـا الثانية فهو رجل يتزيا ويتجمل بشكل أمرأة، مهمته ان يؤدي كل الادوار النسوية الاخرى التي يريدونها منه.. رجل لهذه المهمات، بالرغم من عرض منكبيه وسوء حلاقة لحيته..

وهناك رجل هزيل طويل يـؤدي دور بيشوب جزبريخت، الاب، مؤسس مدينتنا، يشد وسادة الى بطنه الموقّر! يبدو هذا محبطا لا قيمة له، مرعوبا ينتابـه الكثير من الشك بنتائـج ادواره الاتية.. وهذا مما يؤدي الى زيادة الاضطراب في نقطة يتوجب فيها على شخصيتين الكلام في وقت واحد. الكوميدي يـؤدي دورين بتغييره لباس الرأس مثل مهرج مخبول ويوائم الاصوات مع سرعة، لامع براعات محرك الدمى. وهو في هـذا الجو من التعاسة المذلة والقرف يتراشق عليه صفير الحشد، والريح مـن جانبها استمرت على ايذائهم، فهـي تخترقهم، وقد هددتهم اكثر من مرة بنثر الممثلين وممتلكاتهم قبل ان ينهوا المشهد الاخير.



٢٣ ايار

الاحد. رايت هندريكشه وهــي تتهيأ للنوم، تسحب قميص النوم على راسها. كان رأسها تلك اللحظة مخفياً.

كــم مرة رأيتهــا في مثل هــذا الموقف، هــذي الحال، عاريــة تماماً ومنحنيــة قليــلاً وذراعاهــا مرتفعتان، تسحــب الثــوب.. أي لطف لشعرهــا المسترسل على كتفيها. لكنني هــذه الليلة امتلأت حباً، وكأن قد تجدد اعجابي.

شعّ الضوء على ظهرها العاري وبدت بشرة جسدها كما لو كانت ذائبة في النور. رأيت العلامة التي تلي كتفها، ذلك الخط، أثر حاملٍ أو مشدّ. كبر حبي لها.

أكملــتْ لبس قميص النوم واستدارت، فرأتنــي انظر إليها. مرات شاهدتنــي اراقبهــا بهــذه الطريقــة! لكنها هــذه الليلة أحسّــت جيداً بعاطفتــي، فاحمــرّت، ترطّبــتْ عينــاي، كل شيء تلاشــى في ضوء الشمعة، حمرةٌ خجلها وذهبُ جسدها. وبهدوء اطبقت الباب عليها وغادرت..

علــيّ أن ارسمها كما رأيتهــا. جسدها المخطّط بالاشرطة لم يُنقِص من جمالها على العكس أكدّ بهاءها الأصيل.

كأن كل هــذه الأشيــاء التــي أحب بعمق، مظلــة لسفينتي في تلك الرحلة البحرية..

فـإن جاءت أية سحابة لتُعَتِّمَ أفقي، فالحب هو الذي يبعدها، الحب والعمـل، نعـم والعمـل. العمل الجاد، ومزيـد من العمل الجـاد. فأنا اكتسـح المشكلـة باللون أمسحها كأي خط غير مرغـوب فيه، أُغيّبُها كأي موضوع لا أهمية له..

٢٧ أيار

هـو الفجر. عملتُ حوالي ثلاث ساعـات. هندريكشه في المطبخ تهيـئ الطعام وتساوم بائـع الحليب. تيتوس يدور ويتعـثر بما يصادفه. أكاد أحس بغشاوة بصره.

وصـل متأخراً ليلة أمس. دخـل يغني. أظنه مصابـاً بالحب. تبدو عليه أعراض الحب كلها. صـار يكتب شعراً. الولد السعيد المسكين، سيخبرنا يوماً من هي، هذا أكيد، وفي الوقت المناسب.

كورنيليـا ماتزال في الفراش على الرغم مـن ان أمها كررت عليها النداء.

يـومٌ جديـد في بيتنا هـذا، في هذا الحي مـن المدينة الـذي يسمّى (جـوردون) والذي كرّمه سكان الحي بهـذا الاسم، اسم الأردن، هم يؤمنـون بحقيقـة انك يجب ان تمشي على الماء لتصـل الى هنا، من ثمَّ تعبر النهر المقدس الى ارض الميعاد. والحقيقة بعد كل ما ذكرت، ظلت هنـاك في مسكني القـديم في برايز ستراشه. ظلـت هناك كل لحظات الفرح والأسى. عليَّ أخيراً ان اترك تلك المرارات الحلوة للأمكنة التي كانت، وكما لو أصعد مرتحلاً الى عالم جديد أكثر أملاً.

وانـا اجلس هنا في هذا الملجأ المؤجَّر على قناة روزس تخططه كل الأشيـاء الجميلة التي جمعتها حولي من ستراشه. انا هنا انال غذاءً أكثر وأنا أكثر راحةَ نفس وأخفَّ فؤاد ومع أن كل هذه الأشياء محبوبة بعمق،

فهي ليست أكثر من أشجار تستريح تحتها وأنت في طريق سفرك.

فإن جــاءت أي سحابة لتغيّــم أفقي، سيدفعها الحــب عني. وكذا العمل. عمــلٌ جادٍ يليه عملٌ جاد أكثر. فأنها في الرسم أُغيِّبُ المشكلة مثلما أمحو خطأً لا أُريدهُ، أو أمسح عملاً منقوصاً..



٧ حزيران

أشتريــت زوجــاً من الاحذية [بــوت] من كشك يبيــع الاغاني. لم أستطع مقاومة أغرائهما، على الرغم مما ستقوله المسكينة هندريكشه. كان جلدهما ملتماً، مسحوقاً ورثاً بعد ان كان زاهياً يوماً ما وجديداً.

أيــاً كانت صاحبتهما، فقد كانت معوزة حقاً. لقد انفرجت فتحتا الحذائــين وسعهما، كأنهما يصرخان طالبَيْن قدمــي سيدتهما. الأشياء عاطلةً مثل الناس الذين يبدو عليهم الحزن حين لاينجزون العمل الذي يحبون، حين لايتحقق لهم ما أرادوا.

مــع كل ذبول هذيــن الحذائين فهنالــك ما يشغــل الاهتمام بهما، فحتــى إن كان وراء اهتمامنا لذة ازدراء، مثــل غمزة ودّية من شحاذ، مثــلاً، أو ظرطة في أجتماع غرفة تجارة، مثلاً، ربما كان ذلك الاهتمام بسبب الابزيمات اللماعة عليهما. فمــع ان الحذائين متضرران، مازال هذان يتلامعان ويتغامزان حين يقع عليهما ضوء الشمس.

حين وصلــت البيــت وضعتهما على حافــة النافــذة وثبّتُ بعض الازهار فيهما. صفقت كورنيليا بيديها رأت ذلك وراحت تضحك. الا يبــدو مدهشاً إذا لبسنا الأواني في أقدامنــا وأكلنا الطعام من قبعاتنا وجلسنا على المناضد وابحرنا فوق الدواليب في القنوات واتخذنا من الاسِرّة زلاّقات على الجليد!





١٤ حزيران

هي ذكرى موت حبيبتي ستوفلز، احياناً يوجعني مجرد ذكر اسمها.
اوه ياعروسي الجميلة،كيف بي!

انا أعمل طول النهار بقوة أكثر، بدقة اكثر من المعتاد، كما لو كنت اقدم علـى مذبح حامل لوحاتـي أحزانيَ التي تتضاعـف في مثل هذا اليـوم. بسكيني، بفرشاتـي واصابعي أجعل من الأصبـاغ لها أوراداً حزينـة وجميلـة، أوراداً وهّاجة الالوان مثل جسدهـا الذي اتذكره. تيتوس ولدنا، هو ايضاً يبدو عليه الحزن، فهو يزداد هدوءاً.

هندريكشـه، كما هي دائماً من دون أي كلمة غيرة او فكرة. ليس غـير التماسك والصمت. كم مبـارك أنا ان تكون هكـذا أمرأتين في حياتي. كم أشعر اني غير مستحق واقل شأناً.

أشرقـت الشمس طول هذا النهار وكانت السماء أرقّ زرقة حينما ارادت انانيتـي ان أُغلّبَ الكآبة على الاشراق. مع ذلك، فأنا ممتنٌّ لهذا الجـو الطيب والذي أراه، بعد كل شيء، لايهـزأ ولايبدي عدم أعتبار لذكراها..





١٨ حزيران

انطلقتُ اتجول حول الميناء مجلبباً بخِرَقي يصحبني تيتوس في مهمة سفيهة، تلك هي ان اجعل من اللون القَرمزي الجديد لوناً أحمر. كان يمكـن ان يكون أرخص لي لو اني اشتريـت الصبغ من الدكان مباشرة. بـدلاً من شرائه عبر عميل يعلن عـن وصوله بالسفينة تواً. لكنها اخبار تأخذنا ليتكشف لنا كذبها واضحاً بعد حين.

أُمضي وقتـاً في تهيئة مشروبات له ولي اكثر مما اقضيه انا في تسوية لوحة مجدورة. ولن أذكر الآن ما اقضيه من وقت في تلميع حذاء قديم..

في أيـام مثل هذه، اتمنى ألا أكون مضطراً للذهاب الى مدينة خشنة وحشيـة، بل أحلـم بغرفة عمل ومـأوى مثل معبد سـري صغير يبنيه الكاثوليك في بيوتهم مخفياً تحت الكهوف ووراء الأسوار..

٢٣ حزيران

نحـن الهولنديـين مغالون في النظافـة. فكم نفخـر بلمعان بلاط ارض غرفنا وبأخشابنا الصقيلة ونعومة عتبات بيوتنا وبمطرقات ابوابنا النحاسيـة تلمع كالشمس. وحتى جدران كنائسنا الكاثوليكية الغريبة مغسولة بيضاء.

النظافـة ديننـا. هي لا تلي المعبـود لكنها نفسها الآلهـة التي تطرد بعـزم لا يهدأ كل خليط الحيـاة واوساخها عن عينَي الانسان وروحه. الغبار والقـذارة لا يشوهان المرئيات حسب ولكنهما الطاعون يرسله الشيطان نفسه.

ربـات بيوتنا، في النظافـة، راهباتِ يجاهدن من اجـل الصليب، وهـن مستقيمات لا يرحمـن القـذارة، يقاتلن بأسلحة مـن مكانس وحجارِ غسيلٍ، شديدات مثل محققين اسبان.

تركـت بيتي متأخرا هذا الصباح ورحـت اتمشى باتجاه القناة. الماء الجـاري ينعش روحي. كنت متعبا مـن العمل الذي ابتدأته قبل الفجر في حاجة لتجديـد طاقتي. وهكذا سرعان مـا ضعت في سكون امام المـاء، وفي تأمـل تجاوزَ مجرّدَ امعان النظر في المـاء الى نوع من التجريد اللطيـف حيث يهدأ الانسان وتلطف انفاسُه مستريحا كما ينعم كلب استلقى في اول شمس جميلة تلامسه تلك السنة.

رحت اتنقل في هذا العالم وسواه حتى استعادني الى الارض صوتٌ عال كأن جاءني من السماء، هو الرجل الوسخ كما يقال!

دخت. لكني حتى الآن لم اخرج من عالمي. استدرت، وقفت امرأةٌ هناك وبصاق تحفّزَ على شفتيها، وسخة كانت مقرفة! غمغمت بشيء تلفتُّ حوالي، وإلى الاتجاه الاخر، لأرى من تقصده، أي شحاذ بائس مثلا، او أي بائس منبوذ.

لكنها كانت تحدق بي! وحالما عرفتْ انها نبهتني، دفعتْ وجهها بمزيد من التحقيق (ما يسلّي هو كيف تجمعت كل خطط وجهها في نقطة حادة عند فمها المزموم، وقد تحول وسخ وجهها ودكنتُه الى سخط..).

نعم انت، صرخت تشير الى الرذيلة، عار لمدينتنا ان يتركوا هذه القذارة التي لا تعرف الكلام، تتجول في الشوارع فتسيء لاحاسيس الناس المحتشمين المحترمين،

ثم استدارت على عقبيها ومضت تتجول ، ياللعجب، بكل ادب ومن دون ان تبصق علي، هذا الفعل الذي ما ظننتها ستتوقف عنه.

من بعد، وكأن ما ألقي علي من باب اللطف او من باب حماية النفس فأمتعني، غشيتْ عيناي واضطربتُ. حككت راسي فرأيت كمَّ وسِخٌ قميص العمل الذي لم أخلعه قبل ان اغادر بيتي. طبعا فهمت الآن اني كنت ملطخاً بالاصباغ، لا قميصي وحده، فهذا كان عديد الالوان مختلفها مرقّشاً شبيها بـ جاكيت يعقوب، وكانت يداي مخططتين وكذلك وجهي مثل بعض المتوحشين في العالم الجديد. اضف لذلك

ان ما تبقى مـن شعر رأسي قد انفرط حراً يتدلى، كالسرخس من تحت عمامة مقصوفة موحلة، فاخترت قبّعةً عتيقةً وضعتها على رأسي اليوم (القبعـات بالتأكيد تعينني على رؤية افضـل).. كل ذلك جعلني ابدو قذرا مستهجنا، انا فعلا في مظهر مخيف ومعيب!

دخلـت بيتـي حزينا– لم يكن الحزن من اجـل نفسي.. نظرت في المـرآة وفكرت: هذا الشكل البديـن المخطط الملطخ بعينيه الجاحظتين وانفـه البهيمي، كان وحشاً مفزعاً وقذراً وجب ابعاده عن الناس مثل مصـاب بالجذام، ربما كان عليّ ان احمل جرسـاً صغيرا احذرهم من حضوري.

انفجـرتُ ضاحـكا سألنـي تيتوس، ولـدي، عـن النكتـة التي اضحكتني. مسحتُ عينيّ ونفخت انفي و لم اعطه جوابا. لم استطع.

الجرس يرن:

لنك ألنك ! لنك ألنك...



٢٥ حزيران

في هذا الاسبوع اطول يوم في السنة

جميع القمم.

ثم قطرات.

انه تصميم كل الاشياء وايقاعها المتدافع

أنا على ما يرام، ولكن هل هذا كاف؟

علـيّ ان اجهد اكـثر، الكدح هو الجـواب الوحيد وهـو سجيتي الكبرى. يجب ان اصل القمة.

السقوط بعد ذلك سيكون الراحة الكبرى.





٣٠ حزيران

عصر هـذا اليوم صرخت بـ كورنيليا. لقد جـاوزتُ قدرةَ تحمّلي بصراخهـا العـالي وزعيقها وهـي تلعب مـع ثلة مـن اصحابها، كان لعبا صاخبـا تحت نافذة غرفة عملي. كان يوماً حـاراً وتركت النافذة مفتوحة على وسعها.

سبـق ان توسلـت إليها، رجوتها ان تحرر طاقتهـا اما بصوت اهدأ او ان تذهب الى مكان ابعـد. لكنها رأت توسلاتي ملائمة للأهمال. حاولتُ بكل جهد ان اكبح عصبيتي وأتلافى نفاد صبري مما تسببه لي مـن ارباك، لكن لم أُوفَّق في ذلك. فتسلقت الى النافذة، انحنيت إليها وهددتُها بغضب.

كنت تلك اللحظة هائجا اعمى. وعدت الى عملي اسوّي بالمدحاة الرولـة كتلة الشمع على الاطباق اهيؤها للنقش، وهو عمل شغلني بلا جـدوى. صدمها صراخي الغاضب العالي فراحت تنشق ثم انفجرت باكيـة بصوت عالٍ امـام وجهي الهائـج. وهنـا زاد الضجيج وصار شيطانيـاً اكثر فرحـت اطلب الرحمة والسكينة مـن السماء. من تلك اللحظـة شعرت اني استحق الرثاء، ورحت انحب مثل طفل. وبعد ان انسلّتْ صديقاتُها مبتعدات مثـل الفئران، و اختفت هي من المشهد، شعـرت اثر ذلك بحـال زري، مؤسـف، وتحول السـلام الذي سبق الحَـدَث الى قلقِ بالٍ وكـدر. حاصل كل ذلك هو دمار كل الجو الذي كنت اتمتع به ودمارُ عملي.

كان علي الآن ان أبحث عن الطفلة المسكينة خارج البيت واطيّبَ خاطرها وأربّت عليها طالبا الغفران. وانا استذكر ذلك يبدو غريبا، أن دموعها جعلتني استثنيها من كل التبعات، هو حس الابوة يحتلني!.

٣ تموز

نهضت متاخرا جدا. خَجِلٌ من ان اقول ذلك. الشمس عالية صرت كسولا مثل لورد ثري.

لكن ليس كل الاثرياء خاملين. النشاط صفة الصناعيين من تجارنا. بالنسبة لاولاء العمل المتواصل والتجارة التي لاتهدأ، هما الفضيلة وفي نظرهم الهدف هو تجميع الثروة، وانا اظن ان الثروة تؤدي الى السلطة ففي جمهوريتنا الغنية الحق الالهي للملوك، وهذا يعني ايضا حيازة الذهب.

في الاسبوع الثاني، وانا اتجول في المدينة، نظمتُ اغنيةً صغيرة:

أنت وانا نعيش في بيوت

من خشب وطابوق وحصى

لكن الرجال الاثرياء يعيشون في

بيوت مبنية من قهوة وفاصوليا

وحرير وتوابل

ومن ذَرَة وحيتان

وعبيد سُلِخوا من وطنهم.

مــع ذلك وانا اعــرف اني (بالرغم من كل عملــي وزهوي وتاخر يقظتي هذا الصباح)،لست اكثر من متسول في ابواب الاثرياء!

.



١١ تموز

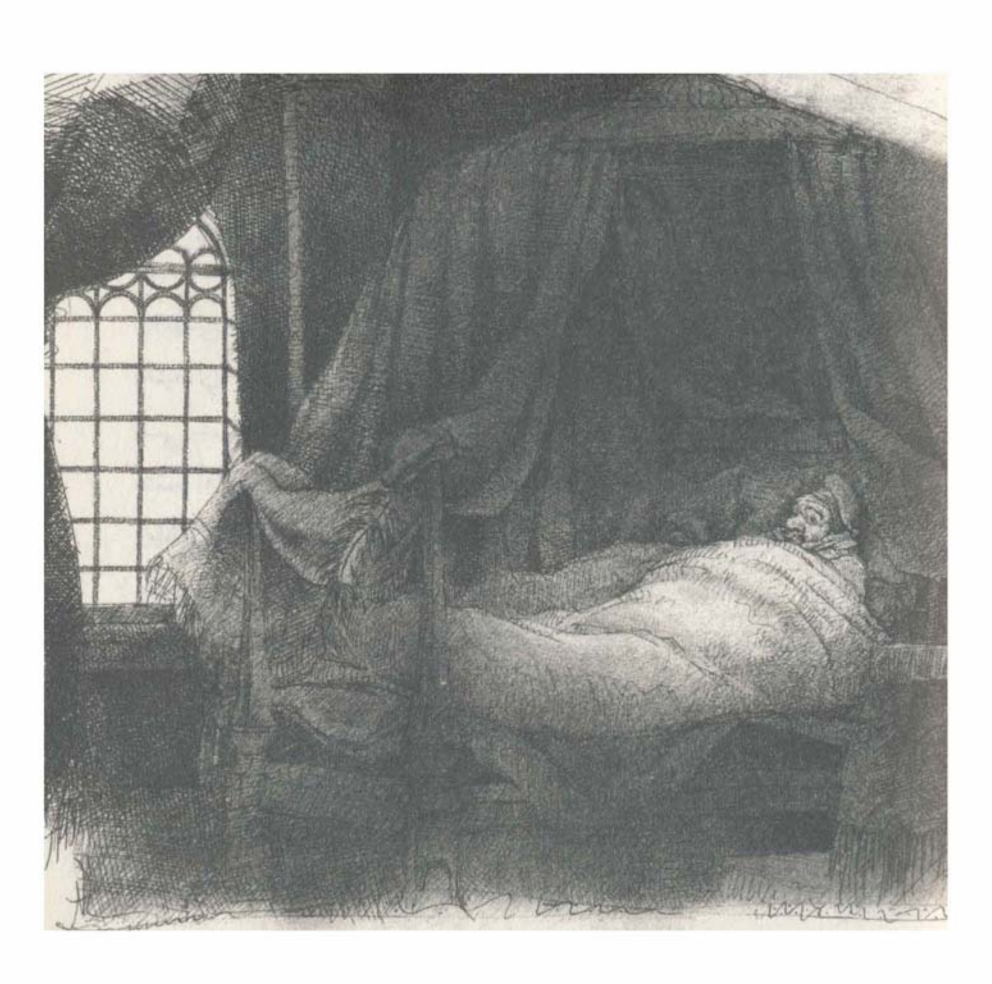
كنت هذا الصباح جالساً بهدوء وارتياح. انا اليوم اول من استيقظ وكورنيليا مازالت نائمة مادام هو يوم الاحد. سلمتُ، فترة نومها، من ثرثرتها التي لاتنتهي ونقنقتها ومــن فرحها الصاخب بالحياة.. بدأت افكر كيــف ان نضجنا او كبرنا يكون بطيئــا بسبب صحبة الاطفال، وكــم ننسى معهم طفولتنا، وهنا انتبهت، كان عليّ ان افعل شيئا بازاء الطريقــة التي بدأ فيها الضياء ينسكب عــبر النافذة، وهو ببطء ولطف يعــبر الغرفــة المعتمة. شعرت كاني قــد أُضيئ داخــل نفسي فاتضحت عروقي كلها.

فجــأة، كما لو اني لم اعرف ابدأ من قبــل، عرفتُ الان من اكون، ومــن أي بقعة انبثقت انا رامبرانت، ابن هارمن ابن كرت الطحان في ليدن.

انتشــر الضوء الزاحــف في الغرفة. لابد من ان سحابة تمر الان على الشمســ. احسست في الحال ببرد يلم قلبي وتذكرت كم كان الظلام وانا طفل في مطحنتنا، ظلمــة لاتشبه أي ظلام عرفت. لقد اجتذبتني تلك الظلمة مثلمــا ملاتني بشوءم اسوأ كثيرا من الخوف،الخوف الذي يلازمنــي حتى اليــوم. لهذا، كمــا اعتقد، انا ابحث عــن ضوء شمعة لاخترق الليل واسعى لمعانقــة النساء للدخول في اضوائهن وفوق كل هــذا، اندفاعي الى الرسم وافنــاء نفسي فيه، هذه هــي القوة الوحيدة القادرة على اعادة النور، على طرد الليل من قلبي وأعماقي.

السحابـة مرت، وعاد الضوء لكني مازلـتُ شاحباً، ومرةً اخرى غير متاكد مما كنت. بعضـ الذكريات تُخْتَزَن، اخرى لها طعم احلام رديئة.

بـدأت اجراس الاحد، قـررت، ان من الافضـل ان انهي عملي. بالنسبـة لي لايوجـد يـوم راحـة. وقبل ان ابـدأ العمـل ذهبت لاقبل هندريكشتـي. استُفِـزّتْ واستمـرت في نومها بعـد ان انقلبت على ظهرها ثم كانت كلهَا وردية ناعمة وضحكها ينسكب شلالاً عليها..



١٥ تموز

يوم ميلادي الخامس والخمسين هندريكشه واصدقاؤها الاطفال هيأوا لي هذا المساء احتفالاً بسيطا للمناسبة. اثناء ذلك وقعت عيني على المرآة بينما كنت اجتاز سلالم اليوم الاخير، خطرت لي فكرة هي: لن تمحي كل العلاقات والخطوط القديمة وان قشورا كثيفة جدا تيبست منها علي. لاأعني بها آثار زيت الرسم فهذه اعتياديا تلطخ وجهي ويدي وشعري حتى شاربي اللذي يغطي شفتي كما هو اعتيادي ان تبقى ادوات الرسم مرقشه مثل لوحة اصباغي اليابسة، هي يابسة مثل نَعَم جافه! ستظل اثار الماضي كثيفة علي فقد تراكمت مثلما أُهيل أنا الصِّبغ على القماشة بالطريقة الايطالية التي نسميها impasto لقد تراكمت طبقة فوق طبقة.. هكذا اعيش انا وهكذا اردت حياتي وبحثت من قبل عنها. اعتقد، وقولي صادق، ان تجارب حياتي جميعها الطيبة والرديئة، الخشنة والناعمة، متساوية عندي.

لا ألتمُّ او اهرب من أي منها. لقد تمنيتها احتجت لان اعيش كل واحدة منها،ان اعرفها كما تحدث ساخنةً وحادة. اتنفسها مثل الالوان التي اخلط واعجن و التي ادلّل وأُربِّت عليها وأوجّهُها لا فقط بالفرشاة والسكين ولكن باصابعي نفسها ايضا، بجلد اصابعي العارية. انه الاغواء، القتال من اجل الحب، لحماً للحم، فلم يعد من فارق عندي بين الرسم واللحم، بين اليد التي ارسم واليد التي ترسم. رسمي صراخ وهدير. هي رسومي. الضحك والنحيب، والابتسام في النحيب، كل هذه في الرسوم، الرسوم التي هي رسومي. انا الرجل

الـذي وراءها. حسنا هكذا عشت، كنت السطح الذي تكومتْ عليه تجاربي رسَّختْ نفسَها فوقه. انها المباهج والتاملات احاطها ضوء ذو وهـج ذهبي او الق بنـي ناعم هي الاصباغ تراكمـت وهي المخاوف والشكوك وكل اوقات الهم واسعةً وكثيفة. ظلال مغموسة في العتمة والمرارة تصارع ذلك الضوء والضوء يدفعها، يسحبها او ينحنى امامها ولكن لايهرب ابدا من جسامة قوتها. ذلك امر لن اقبله ابدا.

فانا اعرف جيدا اني لاشئ من دون ذلك الضوء أو ذلك الصراع.

تمتعت بوجبة يوم ميلادي الفخمة وانا الان اتوجه سعيداً الى السرير مع امراتي المباركة.



٢١ تموز

كلنا ارتدينا افضل ثيابنا. طبعا نحن لانملك بدلات كما كان يتيسر لنـا من قبـل. ابتدعنا ثياب اليوم من خرق ومـن شراشف الاسرة، من ادوات الطبـخ واي شـئ خطر لنا وكان قريبا مـن ايدينا. صنعتها من مـواد قديمة متروكـة وتالفة حد انهـا لاتنزل من اجلهـا مطرقة دلال مـزاد. اه من تلك المطرقة التي هوت مرة ومرة وحطمت حياتي كلها فاحالتها مسحوقاً وذكرى..

لكن دعني الان اتجاوزها.

قمـت بتلـك الثيـاب مزهـوا مثـل نبـي وعلـى طـراز صديقي الراحـل رابـي. لقبنـي الاخـرون ابراهـام فرشـاة الرسـم Paintbrush ben Abraham. اقلعنـا بـ هندريكشه وهي مثل ملكة الصيـف، تمشي، ومِسْحَب من لحاف يزحف وراءها كقطار وتطوق راسها الخرز الملونه وفي شعرها، الذي دبّسناه وردة لماعة.

كانـت تبدو مثل شاعر جـوال، تروبا دور تتدلى مـن يدها مقلاة طويلـة الذراع، مثـل عود بعد قليـل تُسْمَعُ الحانُـه. وكورنيليا تلتف بستائـر تحمل مسعـارا هو صولجانهـا وشريطا مقصّبـاً، فهي الاميرة الجميلـة ارمنتـاود تدعو نفسهـا، او تختار اسما اخر بهـذا المستوى

ونحــن جميعا نطيعها وندعوها بــذاك الاسم، وعادة يكون اسم امها مونــارك الملكــة، ولية العهد. اكثر مــن هذا صنعنا للقطــة عمامة من قطيفــة قديمة من حقيبة، صَنَعتْها مــن قبل لكن اخرجتها اليوم لتمضي بها القطة في الشوارع.

٢٩ تموز

هندريكشه

تنام

ذراعاها حول راسها

مثل هالة

احدى يديها

مشدودة القبضة

ابهامها الى الداخل

اليد الاخرى

مبسوطة

مستسلمة ناعمة

لهما شخصية مزدوجة

مثلما

لقلم الفحم

ساذهب وأُقبّل

راحة يدها

فانا اعرف

شذاها

الدافئ

العفيف

الناعم.

عزيزتي هندريكشه غالبا ماتبدو متعبة هذه الايام اخشى انها تجهد نفسها في رعايتي لكنها ماتذمرت يوماً و لم تشكُ. سعالها يزداد سوءاً ولاتسمح لي بان اكلمها عن ذلك. لقد اهملتُها مشغولا باهتماماتي.





٣١ تموز

آه يا الهي! أنا غاية في السماجة!



٢ آب

ذبابة تستقر على يدي وأنا اكتب هذه السطور، مشمئزٌ منها وارغب في طردها لكني مشغول لا أريد قطع الكتابة. لقد جلسَتْ على ساقين طريتين وتبدو خفيفة بثقل نحلة. هي مفعمةٌ بضوء الشمس، ولكنها ذكية فعلاً. هكذا بدت حين استقرت وهكذا هي في اسلوب طيرانها السريع.

أحببتُ قردتي، فينوس، أحببتُ سلوكَها الحكيم والمضحك، وأحببت ايضاً جاذبيتها. من طباعي أني يهيج غضبي ضربُ الخيول ولا احب حبسَ الطيور في الاقفاص. مرةً رأيت ثوراً مذبوحاً، مسلوخاً. لم أنسَهُ أبداً بين كل مارأيت من الحيوانات الميتة او التي تموت. من كل هذه أخذتُ قسطي من الألم. أما ذلك الثور الممدد مفتوح الجسم، فيقف أمامي، يجب أن يقف أمامنا جميعاً، حيواناتٍ، كنا أم بشرا.

فإنسان ممدّدٌ على المشرحه وقد فُتحَ جوفه أمر مرعب حقاً. القلب يخفق بأسى ضعفهِ وسهولة دماره. الناس المتعالية خيالاتُهم كم يبدون متشابهين متماثلين تحت الجلد، وفي سهوله تمزق اجسادهم. أي كشف مريع يظهره انشقاق اللحم بسكين الطبيب.

مرافقي، الرجل المجنّح، اختفى. طار. أبديت اشارة فظةً له وأنا اغطس ريشةَ الكتابة. أنا غالباً دونما أي فكرة. مع ذلك، احس بمساس الفكرة لي. او انها تعشعش بين شعرات رأسي القصار، تتوقف برهة في طريق رحلتها.

أنـا نفسي، أدقق، افكـر، لأعرف في أي قسم مـن الجسد تستقر الروح، هذا إذا كانت مادة ملموسةً أصلاً.

٥ آب

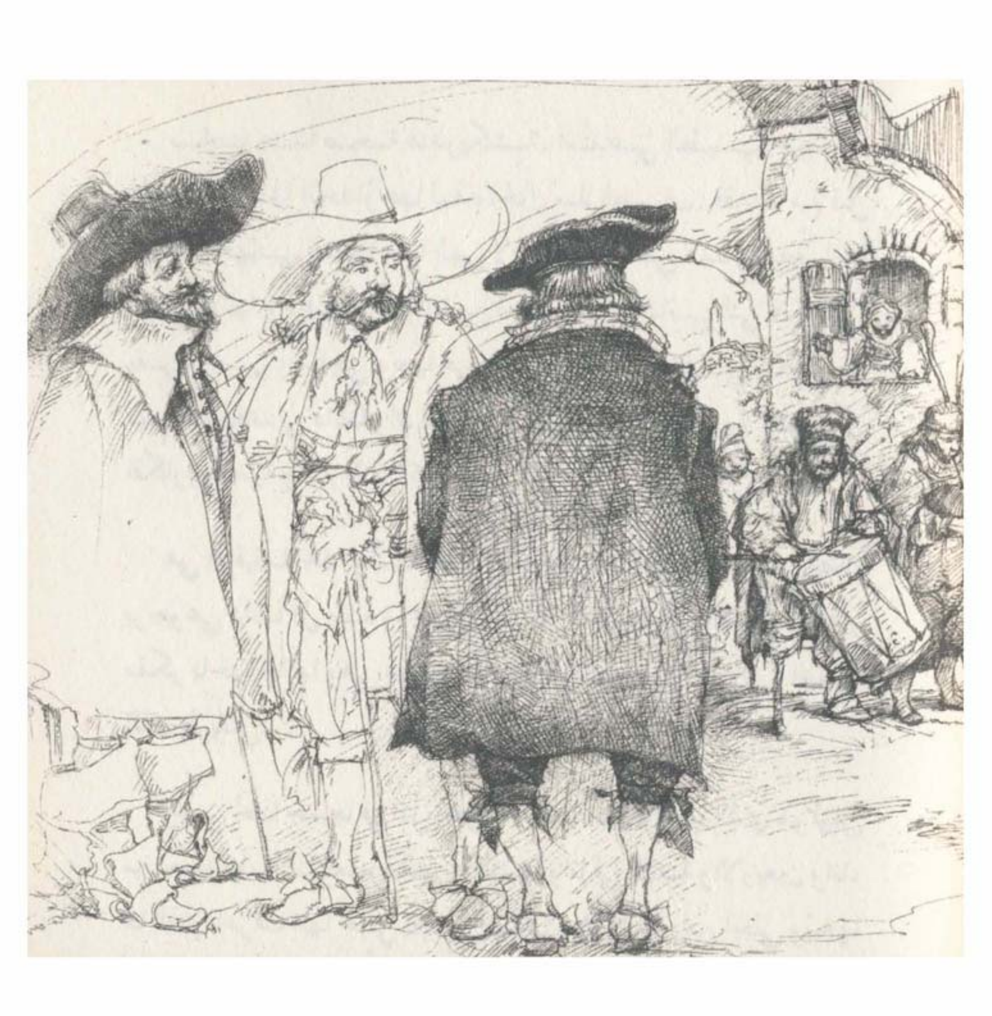
سمعت اليــوم موسيقى ناعمةً، حيّةً، طازجــةً وجنوبية. كانت ألحانــاً لذيــذة يعزفها طبال ذو ســاق خشبية ورفيق لــه عازفُ ناي أعمــى. أعطيتهمــا مبلغاً جيداً وقدمــت لهما شراباً كثــيراً بقدْر ما ابهجتني موسيقاهما. مقابل ذلك زاد سرورهما وعزفهما. تساءلت لِمَ لَمْ أسمع بلحنهما هذا من قبل. أجابني ذو الساق الخشبية (الذي فَقَــد ساقه وهو جنــدي حامل مِطْرَد، جاءته قذيفــة مدفع فاقتلعت ساقــه.) قــال لي انهمــا تعلما ذلك اللحــن من بحّار وهــذا بدوره التقطــه، في آخــر رحلة له، مــن خادم سفينــة، عــازف، أصلُه من البندقيــة ويعيشــ في هافانا. أدّيا لي اللحن مــرة ثانية، فاحتاجا لملء قبعتهمــا ثانيــة و ثالثة. الجنــدي المناوب في مربضــة، أراد من فاقد البصر معزوفة اخرى. كان هذا جزءاً من الكوميديا الكبيرة للمدينة، والتــي يسميها الطهرانيون فوضى، او شــر، ويحبها المشاركون في الاستمــاع لها ليُبعدوا الانحطاط عن البشر. كل المشردين والشحّاذ المطارَديــن في دار الاصلاح، وكل النساء اللائي هناك شحاذات او بغايا. وأما اللواتي في بيت النسيج فمهنتهن الحياكةُ والغزْل. هؤلاء علَّمَتْهُــنَّ الحياة أن يخطِفْــنَ طاعتهن وينسجنهــا بقماشة الاحترام والاخلاق.

لكنهــن بسبــب ان مأواهن ليس بعيداً عن طريــق الطيبين الذين يعبرون من هناك، مصطحبين معهــم عوائلهم نحو المهرجان، كان اولاء يلقــون لهن قطعة نقد صغيرة في الباب، طبعاً لقاء تحديقهم في

هؤلاء المخلوقات البائسات اللواتي ندعوهن المتبطّلات والخاطئات.

بعد العشاء تعلَّمَ كلٌّ واحـدٍ منا اللحن الجديد. فراحت ملاعقنا تتقافر بأكوابنا الكبيرة ونهتز معَ اللحن، فرَحُنا كان كبيراً.

كانت هندريكشه مألومة تتوجّع وتخفي ذلك. تيتوس، ولدي، أخبرني بأنها اشترت أدويةً من دجّال.



١١ آب

ســاءت جــدا صحــة هندريكشــة. استُدعــيَ الطبيــب. هبطــت معنوياتها. بــدا انحدارُحها لهذه الحال منذ الصيــف. فقدتُ من قبلُ زوجــةً، فهبْنــي الشجاعةَ يا الهي لان اعيش ايامــي هذه واحفظْ لي يا الهــي قوّتَها وعافيتها. هــو انا من استفذْتُهما بطلباتــي التي لا تنتهي، بفــرط حبــي وهياجي وصياحي وشــدة ساعات اكتئابــي وبطلبي ان تهــبّ لمساعدتي دائما وان تستمع لمتاعبي وحديثي الذي لا ينتهي عن افكاري الغبية والنارية في كل شيء.

هي الرقيقــة جدا والسمْحةُ التي لا تعــرف الضغينة ابدا... ايضا، برجوعي دائما الى بلدة زوجتــي الراحلة "ساسكيا" واهمالي لها غير مفكر باحتياجاتها وهي معي هناك حيث اسكن على حسابي واعمل. تلك طريقتي!...

وهــي تحبنا جميعا في كل احوالنا. تحبنا كلنا، ولدي الذي هو ليس من جسدها، ابنتنا العزيزة التي اعطتنيها وانا في الثامنة والاربعين وانا، انا الذي اعرف انها تحبني بعمقٍ وصدقٍ وبلا تذمر ومن اجلي وبّخها علنا امــام الناس رجــالُ الكنيسة وطردوها. لقد تقبّلــتْ بسرور وبلا خوف ان تعيش وتقترف الخطيئة معي. كان صعبا الزواجُ منها بسبب شروط وصية ساسكيا على فراش الموت للافادة من مالها وبيتها، ان لا اتزوج. لقد تحملت المهانــةَ بسببي. لقد كانت سندي وملاذي والان

تلــك القوة تــزداد انكماشا كل يــوم. اتوسل اليك يا الهــي احفظها، اتضرع اليك الهي، والا، فخذني بدلاً عنها.



١٣ آب

يالهـذه الارض، هذا السهـل الذي يبدو احيانا بحـراً اكثر مما هو أرضـ. كم تهيمن عليه الابـراج والطواحين والكنائس. خبزٌ وروح. (ألقِ خبزهـم فوق المياه...) ولكن أين هو الخبز للكثيرين من جمهوريتنا الثريـة المتنورة؟ أين هو الخبز للاخريـن، لهذا العدد الهائل؟ ثم اين هو غضبهم من اجل اخوانهـم واخواتهم الذين فقدوا حياتهم؟ أي عمى وأيةُ أبادةٍ هذا الذي يسمونه الافتقاد؟

الرسـم مشـاركٌ وموحّد. على قماشـة واحدة يجمـع الرسم بين الملاك وحمار الزريبة والشـوارع المزفّتة بالشمس والضوء بالظل وانا الرسام بالمتفرجين على عملي.

عملي هو برجـي الشخصي ارتفع فيه إلى خبـزي اليومي وأكافح عليه لأوجد شكلاً وأكدّس عالياً صخور الحياة لأصل الابدية.

١٤ آب

ليلة مناسبة جدا.

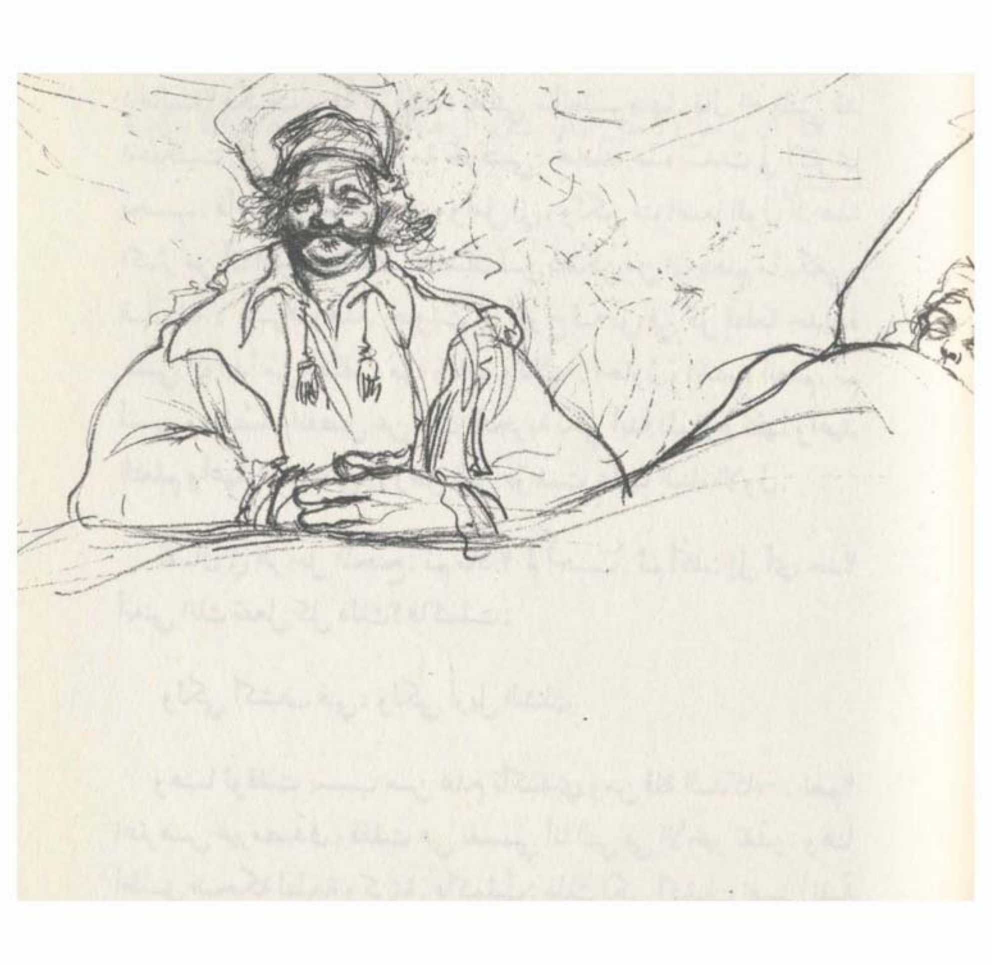
ما الذي علـيَّ ان افعله لاسعاف هندريكشة؟ دلني يا الهي وبفرح سأفعلهُ.

يـا الهي لطفك، اكشـف لي اي جهدٍ ابذل، مـا الذي يجب علي فعلُه، اتوسل اليك!

سأعمـل بمشقة اكثر، سأُتعِـبُ اصابعي حتى العظـام وأُنهِكُ شَعْر فِرَشـي، أُحرق قماشـاتِ اللوَحات بحبي، بعبادتـي وحتى المهارات التي لم تكتمل بعد عندي

سأُسَخِّرهـا اذا كان ذلـك ينقذهـا. اوه يا الهي انقِذْهـا وبارِكْها! بارِكْها !

منكسـراً اترجّـى رحمتَـكَ فانا احبهـا جـدا، بارِكْها وانـا ايضا سأُباركها.



١٧ آب

في هــذه الليلــة سألنــي الرجل المجنح مــا الذي سأفعلــه بلوحاتي الحاليــة؟ فكرت برهةً ثم قلت: اظنني سأتعلــم منها. قال انه ظنني قد امتلكــت كل المعرفــة اللازمة لحرفتــي. مجاملته هذه بــدت لي اكثر مما يجــب. فأجبت: صحيح اني، وآمل اني، ولكن متواضعاً اقول ان هذا اكــثر من أن اكون كذلك. الانسان لــن يتمكن من ان يتعلم ما يكفي. قــال انه لا يعــرف هذا. حاولت ان أشرح لــه اني في كل قطعة جديدة علــيّ أن ابدأ من الصفر، مرة وثانية وثالثــة. احاول، اختبر، أتعلم. ثم أنسى ومتقصّداً انفصل عن تلك التجربة لكي أبدأ المسيرة كلها وأعيد التعلم وأعيد البناء على الارض التي قوّضت عليها البناء الاول.

فقــال لي الرجل المجنّح: ثم ماذا؟ لم أُجــب. ثم أكّد: إلى أي حد؟ أتعني انك تفعل كل ذلك؟ فاكملت:

ولكي أكشف فني، ولكي أُزيل الشك.

وهنــا توقفت بسبب مــن عدم تأكــدي ومن قلة الــذكاء—: نعم؟ اعترضــ غيرمصدّق، فقلت هي نفســي أنا التي في الأخير تقدّر. وهنا أطلــق ضحكة لطيفة وكريمة. فأكملتُ: ذلك لكي أكشف نفسي نقيةً في حــال تشبــه ابتسامتك، وحيــث كل المُنْجَزِ، يصبح مزيــجَ سكينة وقناعــة. حيث كل مُقْلِقــات العقل ومُربِكاتُهُ تعمــل هي والروح معاً كياناً واحداً.

فقال: وتستمر في العمل، ولكي تودع الحاضر تقدم كل الشجاعة وكل الفــرح.. قال هذه الجملة وارتحل. كم اتمنى أن ارى ابتسامةً مثل ابتسامته، ابتسامةً تشبــه زورقاً خالياً تحرّر من العاصفة فارتاح منساباً على مياه هادئة.

قبل ان يرحل، وحين كان مــا يزال هنا، سمعته يردّد صلاة خاصة لـ هناي.



٢١ آب

تـردّت صحـة هندريكشه ثم استعـادت عافيتها، لكنهـا ما تزال ضعيفـة خائفة و لم ينقطع سعالها. لكن كـم عظيم هو الفرق. انا ممتنّ خاشـع لله وبرِقّة خاصة ارعاها. كنا نمشي على أطراف اصابعنا، لكن من غير رعب و حزن، انما ننبض بالارتياح والامل.

يجب ان أُسجل هنا امتناني ودَيْني لجيراني ولصاحب المنزل وعائلته الذيـن اشاركهم السكن فقد كانوا جميعـا لطفاء جداً ومتعاونين معنا في أيامنا الأخيرة هذه.

هندريكشه محترمـة جدا في المحلة، وفي الحقيقـة هي جد محبوبة. كمـا أنهم يرعـون كورنيليا ويهتمون بها جيداً، ممـا خفّف عن كتفي عبئاً كبيراً.



٢٤ آب

وهكذا تــترك ريشتي اليوم تقريرها في هــذا الكتاب الصغير. لقد كانت تحوّم مثل طائــر ضخم على الصفحة قبل أن تحطّ وتشرع برسم أثــرٍ من حبر. افكاري غالباً، وبصــورة طبيعية جداً، توصلني الى حال مــن التســاؤل إن كانــت يد رجل آخر هــي التي تــترك علائمها فوق أوراقي. ما يهمني ليس الأثر ولكنه شيء باهر مثير. انا في الأخير أصل الى حكم أن هذا الاثر الذي تُرِكَ ممتع وقيّم، و لِمَ لا، مخيف!

أولاً يجب القول، أن عدد الموضوعات التي نعمل عليها دليل على ان رغبتنــا لا تكــفّ ولا تنتهي في ترك أثر لنا. لمــاذا؟ نظرة واحده الى جــدران المدينة تُقنعُــكَ بذلك. كل تلك ألتي تُــرى على الجدران هي رسائل. فليس الكاتب والفنــان وحدهما اللذان يودعان نفسيهما في الانشاء أو في تركيب الخطوط.

بالنسبــة لي، افضّــل وسائل أُخــر لرصف الطابــوق والحجر، وإن كانت هذه قضية تتعلق بذوقي الشخصي وبما أُتيح لي من فرص اوسع.

٢٨ آب

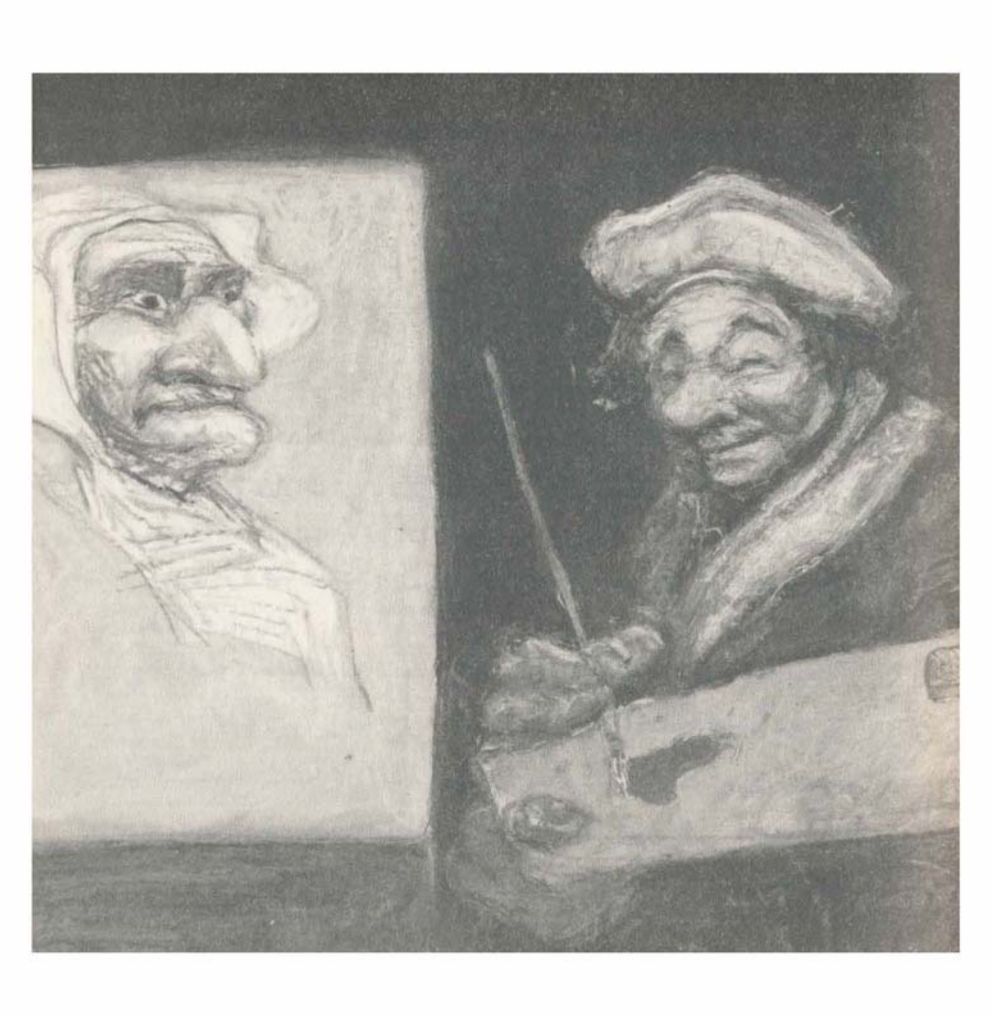
اری ربة البيت جالسة في شرفتها. تخلّ موجع يبدو في الحال التي تضع فيها المرأة يديها المغضنتين في حضنها... كثيراً ما الاحظ ذلك... الاكثر إدهاشاً هي تلك الحالات الاكبر، التي يبدو فيها الضعف واضحاً... حين أرى النساء هكذا، أعلم أنهن اكثر تعباً ويتحمّلن من الهموم اكثر منا، نحن الرجال.



٤ أيلول

يخبرنـا كارل فـان مانـدر في كتابه المفيـد كتـاب الرسامين، عن زيوكسـن، ذلك الفنان اليونـاني الذي قيل انه مات مـن الضحك إثر رسمهِ لعجوز مضحكه.

أيـة طريقة صادقة ومباركـة هي، سواء كانـت في السخرية أو في العلاقات الحميمية أو الفكاهة الجيدة...



١٥ أيلول

نمت هذه الليلة مع هندريكشه. هي المرة الاولى مذ مَرِضَتْ.

حبها ليس خطيئة.

مشاركتي لها حياتها ليست خطيئة.

وليســت خطيئة بشرة جلدها الناعمــة كالزبده، شعرها الذي قبلته ومشّطتــه، فخذاها، ثدياهــا، يداها المحبتان اللتــان تحتضنانني، عيناها اللتان تستوعبان عُريي وشفتاها حينما تتلفظان اسمي.

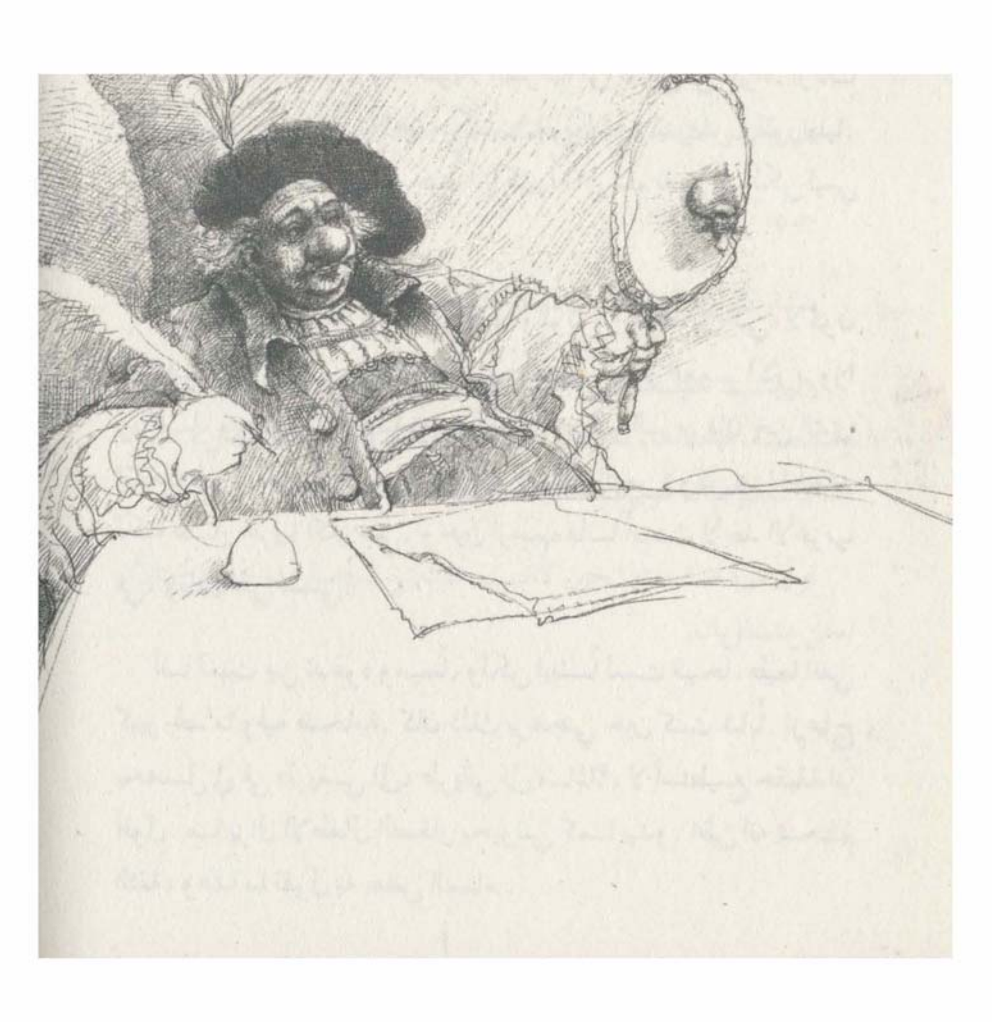
اول مرة ضاجعتها حين كانــت خادمتي ثم صارت خليلتي. الآن نحن متساويان.

١٦ أيلول

قضيتُ هذا الصباح وقتاً طويلاً انظر فيه الى نفسي في المرآة. أردت أن أرسم وجهي. ثانيةً؟ ضحكت هندريكشة وتيتوس وكورنيليا. دائماً ما يقولون لي هذا. صحيح اني كثيراً ما ارسم نفسي، ولكن ليس من غير سبب.

انها الرغبة نفسها التي أرسم فيها وأُلوِّنُ و اخطط أي شيء لاكون صادقاً، أقول ان وجهي تغيّر كثيراً. صار بمرور العمر اكثر بروزاً ويباساً، ويبدو اكثر غربةً ايضا. بمعنى آخر هو الـرم. فان جن الذي اتابعه في المرآة، مايزال موجوداً بعد كل هذا الزمن، وكل هذا الجهد. لكنه صار غريباً اكثر عني. وحين ارسم، فأنا أبحث لأجد الأغرب فيّ، وتلك هي نفسي!

أنا لست من تدعوه وسيماً. ولكن ايضاً لست قبيحاً. طبعاً انفي كبير لحد ما وفيه ضخامة. كان ذلك يزعجني حين كنت شاباً. ازعاج يحصل لي في طريقي الى، طريقي الى ماذا؟، لا أستطيع حقيقة ان أقول. ما يزال الاطفال الصغار يحبونني كما يبدو. اظن انه يمنحهم الثقة، وهذا ما تقول به بعض النساء...





٢١ أيلول

مضيت في نزهة طويلة قبل الغداء حتى وصلت ظاهر المدينة والريف. لقد استغرق ترك المدينة وقتاً اكثر مما كان يستغرقه في شبابي. ليس سببُ هذا بطءَ سيري عما في تلك الايام ولكن بسبب ان المدينة ايضا قد تمددت خلال هذه السنين مثل كرش رجل شَرِهٍ، ببناياتها الجديدة وشوارعها والميادين ومايخطر لك...

هي القدس أو بابل؟ كل مدينة ممتع أن تراها وفي كل اتجاه ما يجتذب العينين لترتفعا بالنظر اليه. جيش من الرجال يدفعون حمولاتهم في مناقع ليشيدوا مخازن وكنائس ومستودعات وخانات. آخرون يتشبثون بهياكل مبان يضيفون اليها شبابيك سقوفاً ومداخن... العمال هناك يجثمون على سقالاتهم عاليا في السماء مثل ملائكة صغار لم تكتمل بعد اجنحتها. وهناك اطفال يسّابقون، يَجُرون أطواقَهم على طرق رصفت حديثاً. ونسوة عاريات الاذرع يدلكن غسيلهن بمدالك حجرية جديدة كما لو انهن لم يفعلن شيئا آخر من قبل ولن يفعلن بعده شيئاً. ما زلن هناك مزروعات في تلك البقعة لا يعرفن سواها، ومن دون أي فكرة لهن عما كان من هذا المكان يوماً.. وسط هذا الصخب وقفت اشجار يوماً (وأنا اتذكر هذا، ليس بعيداً) وكانت في هذا المكان مراع وابقار وارانب برية. بعيدا، وخارج ضجيج البشر، جلست استريح. علي أرض وطيئة رِطبة، لارسم تخطيطات سريعة قبل ان اعود. ايضا لأُريح أنفاسي، أُريح رئتيَّ المسكينتين. الجسد، كما يقولون، وعاء قصير العمر. كل شيء هنا كان هادئاً جداً، دافئاً

جداً، ممتلئاً جداً بأزير وهمهمة الحشرات... الاوراق والفروع تتحرك دائمــاً. لكن لا شيء من الريح (فقــد كان نهاراً ساكناً) لكنها تتحرك، يحرّكهــا اهتزاز الحياة فيها. جلست هناك وقتاً طويلاً ساكناً بلا حراك إلا حركــة أنفاسي الخفيضة المتثاقلــة في صدري. وفي نوع من نصف النوم تمتعت بمراقبة جمــع من النمل يزحف نحو غايته عبر تلك البقعة من الارضــ. هذه وسواها استحضرت في ذهنــي رئيسَ حرسِ البلدة يانتج كوك الذي دفع لي يوماً مبلغاً لارسمه- لكن مع تقدير الاختلاف ومع كل الاحترام للضابط وكتيبته بشبابها الكيسين اللطاف، يختلف النمــل عنهم، ليس للنمــل ولا قليل من التفاخــر او الصخب. النمل، وهذه ملاحظتي، يعرف طريقه على سطح ارض الله الواسعة.



٢٢ أيلول

غن نهــار أمس. التربة، لا استطيع نسيان الارضـ التي نشأنا منها (والتي اليها جميعاً نعود). التراب الرطب المعتم، الأعشاب والديدان ودفء الـتراب وشـذاه العميق. مثل النباتات نحــن ننبثق الى الاعلى، بحثـاً عن الضوء وبرغبة عمياء واثقة.. هو الضوء الذي يلتقي بالأرض في عنــاق مثل عنــاق شقين، الواحد في الآخـر، وسط الظلام الابدي المحيـق بنــا. هو هذا العناق المبــارك الذي يجعل الواحــد منهما يتيماً منقطعاً من غير صاحبه.

الارضـ الخصبة في كل مكان. هي تسند سقوفنــا الخشبية، بيوتنا الحجرية، الكنائس، الجسور والأبــراج.. نحن في الحقيقة لا نستطيع ان نخطو خطوة خارجها. الحرير والفراء والقطيفة و جتى الجلد على أقدامنا لا تستطيع كلهــا أن تبعدنا تماماً عنها. ولا الزيوت ولا العطور وانواع العبق كلها غير قادرة على محو شذاها، شذا التراب الذي يسري في أنفاسنا. ايدينا وخواصرنا وجباهنا كلها مُلطّفة بعصائرها.

في غرفــة عملي، تمــددتْ ساقا حاملِ لوحاتــي في الارض، نفذتا خلال طبقــات التراب الى اجوافــه ودارت فِرَشــي وسكاكيني حول اللوامس البعيدة والجذور. هذا ما تصورته.



٢٣ أيلول

هـذا النهـار، سكـب أحد طلبتـي عليّ زيتـاً. ليس عمـلاً نادر الحـدوث، لكنه أثارني اكثر من المعتاد، كمـا أساءني وآلمني قوله بأني أثـرت اعصابـه فأغضبته. أحزننـي قوله. شكـراً لله لم تُدمَّر أي من اللوحـات. صرخت طويلاً عالياً وعالياً حتـى شعرت بضعف واني تعبت. سأجعله بالتأكيد يدفع ثمن ما خرّبه.

ليس لي طلبة كثـيرون، كما كان لي يوماً. أولاً اني اختار الطالب بعـد طول تفكير. ثانياً ان موديلات اخـرى في الفن حديثة تجتذب المتدربين أو آباءهم.

لمـاذا يـرون ان حياتهم كلها محفوظة في الفـن وورائي أنا؟ نظرة واحدة تكشف انهم جد يائسين وأنهم خائبون في مواقعهم وقاصرو الموهبة. طبعاً هذا لا ينطبق على الجميع ولكن على أغلبهم.

في أول لقاء مع الطلبة، أنظر دائماً في عيونهم والى ايديهم قبل أن أصغي لما يقولونه. وإن استمالني احياناً حجمُ محفظاتِ نقودِ آبائهم. هذا ما يجب الاعتراف به.

حـين كنت طفلاً، اعرف دون أي ظل من شك ان هناك اهتماماً بموهبتـي. لقد كنـت ارسم منذ أيامي الاولى (كلـب، كرسي، أمي، اختـي، جـاري..) في الرابعة عشـرة، وإطاعة لوالـدي ذهبت الى

الجامعة. رغبته في ان أُكمل دراستي وأخدم مدينتي، وان اصبح مديراً مدنياً. أحيي تحية إكبار اخوتي الذين لم يقفوا مع والدي ويحولوا امتيازي الى غير صالحي. لم يتمنَّ لهم والدي نهايات كالتي أرادها لي. فقد عملوا كلهم بالتجارة، ادريان صانع احذية، ويلن خباز.).

لقد وجدت في إخوتي سنداً حين قررت الإفلات من ساحة صراع الديكة، اعني الاكاديمية، حيث واجهت فيها اموراً مقنّنة يابسة بعيدة عن مزاجي وراحتي. كنت دائماً انظر باحترام عال للدراسة الحقيقية و للباحثين والدارسين الحقيقيين. اخيراً فضّلتُ أن أتولى حياتي الخاصة وتعليم نفسي، لأنظِّمَ من بعد حياة الآخرين. ادرك والدي اخيراً اني حقاً منكبّ لأكون فناناً، فأعانني وشاركني الرأي في اختيار معلمي الأول. وهكذا بدأت الطريق الذي قادني لأكون معلماً ايضاً.

في الماضي الذي عانيت فيه من تسلّقات بعض طلابي الذين أخذوا ما قدمته لهم فباعوا متباهين مهاراتهم وارواحهم ليرضوا الذوق العام. ووضعوني في أماكن عليا مما جعلني أضيع الكثير من نظام عملي كما انهم مَرّروا بعض أعمالهم خلال أعمالي لينالوا أثماناً جيدة. أما كيف، أو هل، يميز المشترون الاختلاف، فهذا ما يقطع انفاسي حتى اليوم.

لكن كل ذلك صار ورائي الآن. و لم يكن أولئك أوغاداً. شخصياً أحيي الولد كارل فابرتيوس كثيراً. رسام لطيف ذو مستقبل أكيد لكنه قُتِلَ شاباً في انفجار مستودع أسلحة في دلفت. لقد أُعجبت بخاصة، في لوحته الطير الأصفر. ظلالها ظلال استاذ وغاية في الهدوء وكان متميزاً في اسلوبه. خسارة كبيرة. واحد من

كثيريـن توقعت منهم أشياء جيـدة. كما أني مازلـت أردِّد أن الفتى الآخر هينـد، كان رقيق القلب، فدعه يأخذ منـي الكثير من المؤونة التي بصعوبة كسبت.

٢٥ أيلول

وأنـا اعيد قراءة اوراق الايام الثلاثة الماضيـة، كان علي ان أضيف شيئـاً عن الاصباغ. فهي مـن دون أي شك تأتي من الارض، الارض التـي نأتـي كلنا منها. تتحول مما كان ينمو في رحـم ارضنا، الى الوان حيّة، مثلما يتحول ذلك المعـدن الخسيس بيدي الخيميائي ذهباً. لكن الألوان لا تتم بطرق سحرية او بمعجزة، هي تتم بمهارة الانسان، مهارته هي التـي تُحدِثُ التغيير. من المعادن، كالرصاص والزنك نحصل على الالـوان البيضاء. من الكوبالـت والنحاس نحصل علـى الزرقاء. من الرصاص (ثانيـة) واوكسيد القصدير نحصل علـى الاصفر. كبريتيد الزئبـق يعطينا القرمزي والسمائي وذا الاسـم الجميل والزرقة البديعة الذي يدعى اللازورد، هذا الذي نستورده وندفع ضريبة عليه، والذي هـو، للاسف شديد الغلاء. اصباغ اخرى نحصل عليها من الصبغات النباتية والخشب المحـروق. فأشكال عناصـر الأم، والارض نفسها، وعلى التعيين العنبر والأوكر، تعطينا كل درجات الأحمر.

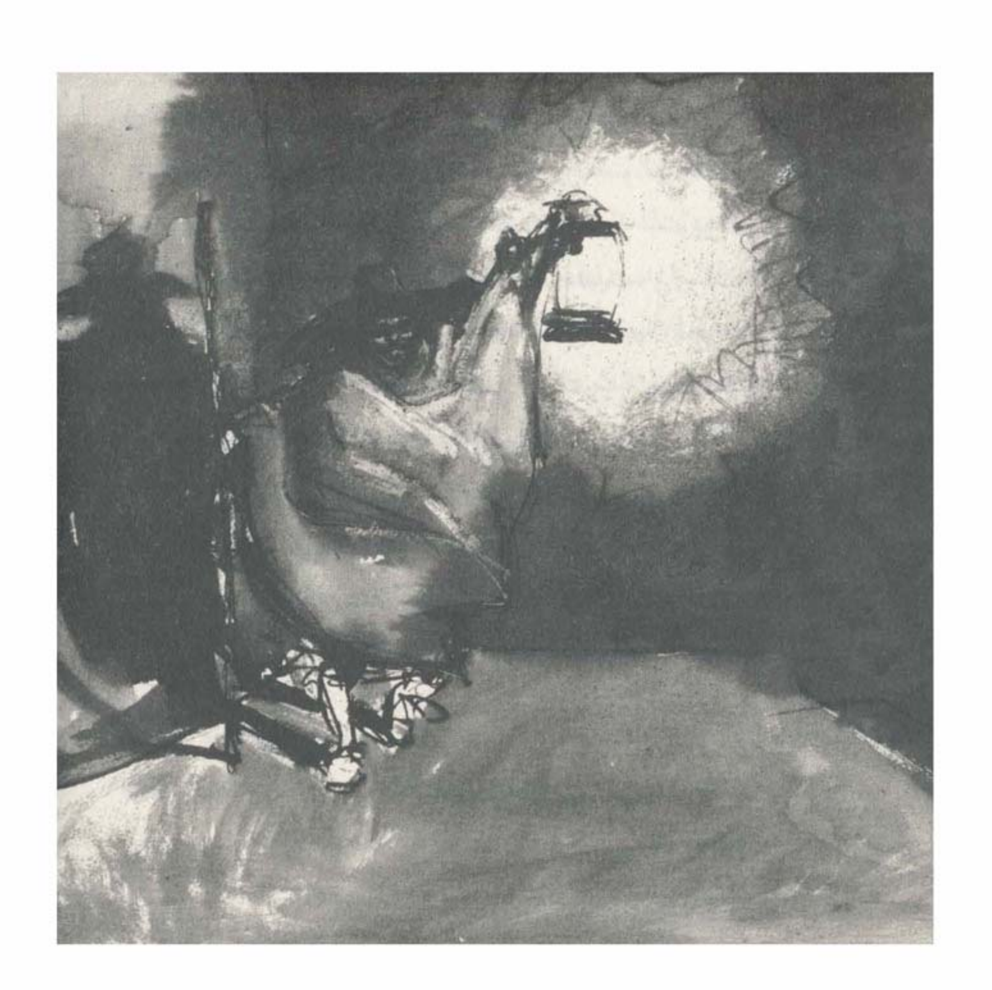
وكل هذه المساحيق تمزج معاً بزيوت نباتات أرضية، احدها الزيت الذي نحصل عليه من بذور الكتان أو الجوز.

٢٧ أيلول

اعلـن حارس عن بدء، واعلن آخر عن انتهاء، نَوْبته. فهنالك رجل في الظلام يحمل مصباحه اليدوي ويرسم دوائر ضوئية لآخر في الظلام بعيـد عنه وعني. تبدو المدينة نائمة نوم الرفـاه والعدالة، وضمنها ينام اولئك التعساء في السجن والشحاذون واليتامى المشرّدون في الخنادق والممـرات. أنا لا راحة لي ولا زهو. فقد عملت، واصلت العمل، من الساعـة الثانية عشرة في ويستكرك. مـا كان عملاً بجودة ولا بجدية العمـل الذي أُنجـزُه عادة وأنا مبتهج. قرأت ما سجّلـه لنا الأسبان: ان قُسـس شعب المَكسيك مزقوا قلوب آلاف من الناس نذوراً لَلشمس. أثّـرَ فيّ هذا كثيراً وأرّقنـي هذه الليله. بقيت تعذبني فكـرةٌ انني، وأنا أهبّ نفسـي للفن، أضحي باطفالي، شـركاء حياتي، على مذبح الفن الجيـد. هي لعنة أن بـدأ الآن تساؤلي. فلا نكران اني وضعت ما أحِب (وتألمت من أجله) في درجة أعلى من أولئك الذين أُحب.

بطريقـة مشابهـة أقـدَمَ ابراهيـم في لحظة، ومن دون تـردد، على التضحيـة بحياة ولده اسحـاق استجابه لطلـب الله، فأمسك بسكينه ليضعها على رقبة اسحاق. في تلك اللحظة، قيل لنا، سُرَّ الله ورقّ قلبُهُ، فأرسل ملَكاً ليوقف يدَ الشيخ الجليل. خشيتُ أن ذلك هو عينُ ما أقوم به، فانا أنجزت الذبحَ وكررته مرات.

لم أُغادر البيت خمسةَ أيامٍ كاملة، أمضيتُها عملاً !



٣٠ أيلول

أنـا الآن في الشـارع، بعيداً عن التـاون هول. صبـاح باكر. يوم مائـج. أرسم تخطيطـات أو أتوقف لأقول: كم اتمنى لـو اني استطيع الكتابـة كما استطيـع الرسم، واكون دقيقاً ومقتصـداً كما في الرسم. وأن تكـون الكلمات خفيفة ورشيقة كما في الخطوط. وأن اكون بها سريعـاً أجسّد الحركة والموقـف. عربه، مثلاً، عجلاتهـا تدور، رجل يرفـع قبعته، طفل يتبول، امرأة تنحني الخ. اثبّت واقعهم على الورق! حالهم، جوهرهـم وقلقهم! أعرضه عرضاً ولا اكتفي بذكره. من اين لي القدرة بالكلمات؟

خـارج الـدار، طباشـير، رأس معـدني مدبـب، ريشة حـبرٍ تأسر الأحـداث، تُمسـك بالاجساد، الوجـوه، التعابير والاشيـاء وبسرعة. الرسـم طويلٌ جَـداً طريقة. البدايـة فقط كانت مشوّشـه. جاء بعدها الكثيرُ، فلتت مني اشياء كثيرة، فرّت منذ زمانٍ بعيد!





٢ تشرين الأول

بعد أربع ساعات عمل، خرجت هذا الصباح، اتمشّى، أُريح رأسي (الجو رطيب بهيج)، حتى وجدت نفسي في ويستكيرك خارج محلات صنع عدسات لا اتذكر اني رأيتها من قبل. كان الصناعيٌّ على مصطبه، أمامه أدواته. استوقفني عمله. وقفت انظر إليه من خلال الباب. لم يبالِ بي، لم تبدر منه أي علامة لذلك. وقفت بصمت. ثم حيّيت الرجل، فوجدته ودوداً يحب الكلام. شُغلتُ معه في حديث. كنت راغباً في تعلم شيء عن صنعته، هذه الصنعة المهمة في الملاحة وفي كل الابحاث العلمية.

لابد من ثناء عليه، ثناء على طيبته، ولانه راحِ يعلّمني حِرْفتَه أنا البعيد عنه، البعيد جداً وإن كنت اشاركه أشغال حقله برؤية أخرى وبطريقتي الخاصة. لقد تفضل بمحض ارادته وعلمني بأوضح الطرق. أخبرني

١–ان الزجاج يقطع من حجرٍ أكبر، ثم يوزّع ليُعالج أنواعاً ويُهيّأ حسب الطلب حجوماً وأشكالاً

٢– يُقَطَّع اشكالاً بما يَسمّونه ألماسة سوداء، تقطعه محدّبات او مقعّرات، كما يطلبون

٣– قال هونتح: نصقل المنحنيات باستعمال نوع من الطين يصنع من ورق زجاجي ممزوجاً بالماء



٤– تُنَعّم الزجاجات الناتجة

٥– تُحَـك بمسحوق طرابلس لتلميعـه. ويُستْكمَل بصنع حافات، وهــذه تعني الوصول الى نهاية المطلـوب وقد تَحقق القُطْر المرغوب به بدقة تامة، كما تحققت استدارة العدسة.

الظـن بان الملاءمة بـين شيئين يمكــن ان تحقق رؤية عــبر مسافات بعيدة، عــبر محيط، مما قد يكشف إرهابيين مـن السماء غير مرئيين..، ذلك ليس موضع شك وظنـك ذلك في مكانه. فهم اليوم بالعدسات يرون تلكم الاشياء القصية ليس أبعد من ذراعك. يلوحون، او تلوح، مثل تفاحات في غصن. والعكـس صحيح، فيمكن اليوم ان تكشف هــذه العدسات الحيـاة الدقيقة للحشرات، وتضـيء الكون الخفي في قطرة دم. هل أفكر ان العلم سيكون قادراً على النظر في قلوبنا؟

الانسان كثيراً ما يلمس ويحـكُّ عينَه وهو يتكلم، وقد يشكو بُعْدَ النظر. عيب مثل هذا عند شخص يريد ان يدقّق النظر الى العا لم، أو أن يعيش، يوجب عليه ان يلبس نظارات.

أمضيت ساعة طيبة هنـاك، أكثر ساعاتي انهماكاً حتى دقّت ساعة ويسْتَوَر. ينتظرني الكثير مـن العمل الشخصي وعليَّ أن اعود. شاكراً ودّعتُ الرجل معتذراً عن إشغالي لوقته وربما ازعاجه. وان كنت قررت ان اكـرر الزيارة. وقبل ذلك الانزلاق في الفراش. هذه الليلة، حدّقت في القـدح الفضـي الصغير المنتصـب على الـدُرْج في الزاوية. تمتعت بظاهرة الضوء وانعكاسه ومبادئ البصريات، كما اشار لها اليوم ذلك الرجل الطيب. وقفت هناك احاول ان اتفحص ملامحي كما يستوضح التجـار الموج وليل السماء. وانا استمد المعاني من تلك الرموز، نسيت

نفسي تماماً وتأخرت تأخرّاً غير طبيعي حتى دفعتْ هندريكشه رأسها فجأةً من وراء ستارةِ غرفة النوم وتساءلت عما أفعل.

انا ماضٍ في اللانهاية، مازحاً أجبت. وأنا هناك انتظر اللانهاية. ردّت عليَّ بالمثل. قُلبَ الحال تماماً. فكرت بذلك واخبرتها بما فكرت. بعدها منحتني واحدة من ابتساماتها وسحبت رأسها من الستارة.

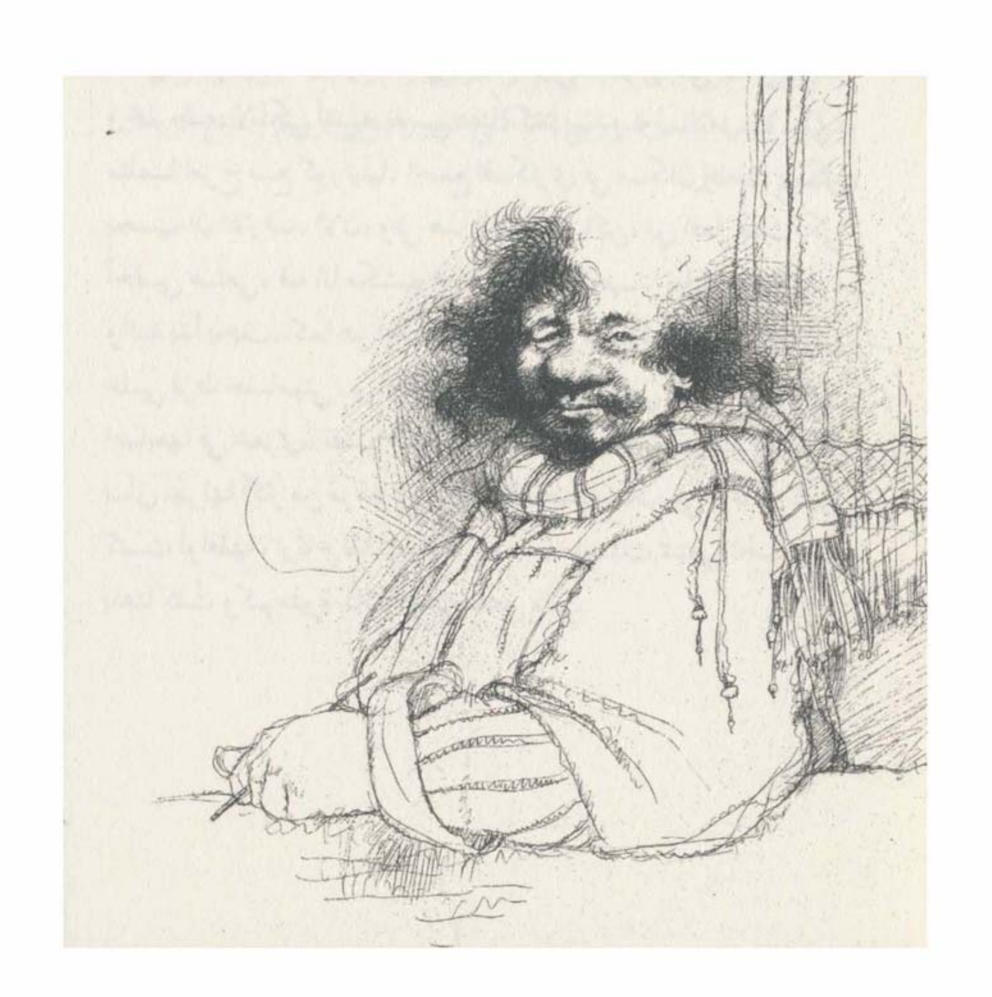
شعرت بضرورة تسجيل الحادثة، لكن ما دمتُ اعرف ما تمَّ، فسأضع قلمي وأطفيء الأضواء لاستقر الى جانب هندريكشه. كل الثناء للـ هنا و الآن.

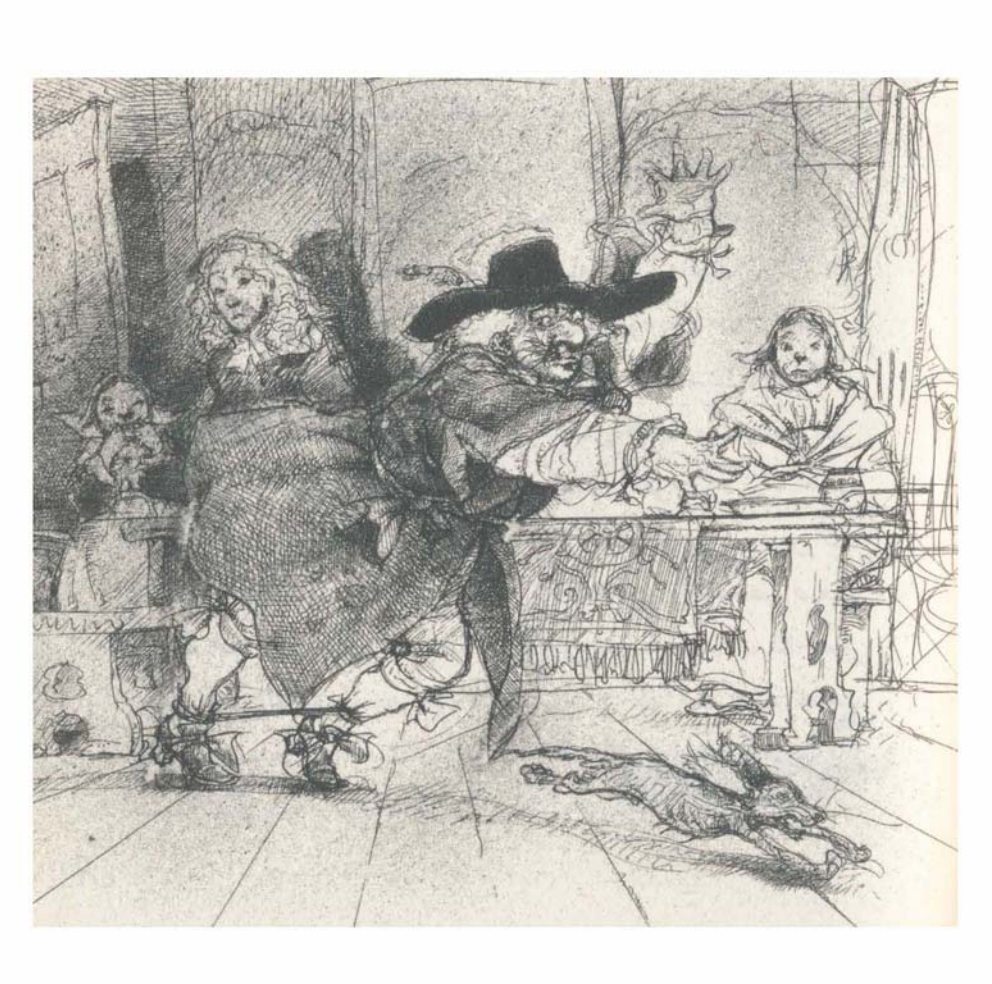
٣ تشرين الاول

حـين نظرت الى نفســي لم أرَ غيري. رامبرانــت الفريد والوحيد.
ولكن، وانـا ارسم صورتي، تملكني شعور بـاني ارسم جميع الرجال
ولجميع الرجال.

٩ تشرين الاول

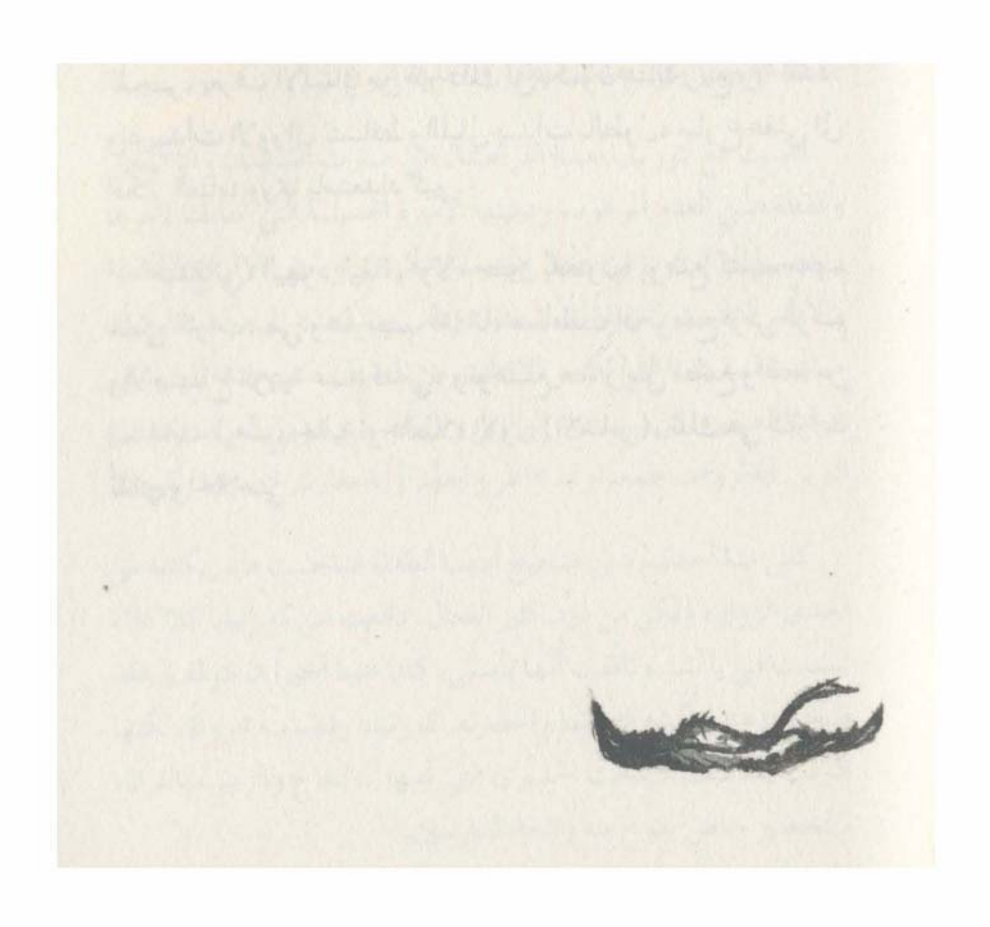
لي مَيْـل لافشاء السر، كما لي دائمـاً مَيْلٌ لتغطية راسي داخل البيت وخارجـه، لا لكي أمنـح نفسي دفئاً، كما يبـدو اول الامر ولا لكي، مثلمـا امزح مـع كورنيليا، اجمع افـكاري في مـكان واحد. ولكن يجـب ان اعترف، الان، وفي هذا الليـل الساكن، اني افعل ذلك لكي أُخفـي صلَعي، فبه انا مكشـوف تماماً. اعلم جيـدا بافتقادي الشعر، وانـه بدأ يخف، كما هو الحـال في عائلتي. ساسكيـا كانت توّبخني علـى فرط حساسيتي. وبالرغم مـن اعتراضي، فهي تصرّ على ان تُمرر اصابعها في شعري، تقلّب القش وتدوّره وتلفّ جعداته المتهالكة. أُقرُّ بـأني نَهَرتها أكثر من مرة واني واجهتها بغضب. لكن في اوقات كثيرة كنـت أوافقها، ارتاح لذلك، فقد كانت تفعل ذلك بمنتهى الحب. كم باهتاً كنتُ وكم مثيرة كانت وهي تفعل ذلك.





١٠ تشرين الاول

كانــت كورنيليــا منشغلة في تهيأة وجبة الظهــر ومن خلف المائدة كنــت اسمعها، هي وامهــا تنقنقان من دون ان تقــولا شيئا. أنا، كان ذهني يدور حول غبائي اذ جلبت الورنيش قبل ان يجف زيت اللوحة. آســف لأن اقول اني لم أهتــم كثيراً بطبيعة سلوكهــا إذ دفعتُ مقعدي عن المائــدة و لم اتناول بعد كثيراً من الطعــام. وحين استدرت لأمشي مبتعــداً، تعثرت وسقطت. لقد التوت قدماي الواحدة على الاخرى. كورنيليــا صفقت لي بيديها مستغرقــة في الضحك. ابنتَكِ يا امرأة هو كل مــا استطعــت ان اقول. أنَّبَتْهــا امها هندريكشــه وساعدتني على النهوضــ. أوضحت كورنيلي ان ضحكها كان فرحــاً لاني لم أصَبْ بــأذى. لكنها صدفــة اني سلمت، وإن لم تسلــم كرامتي. تيتوس كان الاكــثر استياءً بيننا. ربما بسبب عمره، والحقيقة هي انه شخصٌ صعبٌ غير متسامح. اراد ان يؤكد خطأ سلوك كورنيليا اذ ابتهجت لما حصل وتعلــن بعد ذلك ان فرحها كان لسلامتــي. منحتُها قبلة كبيرة اعادت الهدوء للجميع. كما قمت بمداعبات حكيمة. واذا اردتم الحقيقة، فانا تلقيت عقاباً جيداً على الاتيان بالورنيش، في ذلك الوقت..



Twitter: @ketab_n

١٢ تشرين الاول

اليـوم، كل الرطوبة والبرد. هو الخريف وصلنـا، فقد ازداد سعالَ الفجـر، يعرف الانسان من غير ذلك لن يكـون هناك ربيع ولا تجّدد. وإذ بـدأت الاوراق تتساقط والليالي بـدأت بالطول، سارع عقلي الى افكار الفناء، وربما باستعداد كبير.

اصدقائي، اليهود التُقاة، اولاء حـين يُدفَنون، توضع كتبهم معهم علـى التراب، هي ومحارمهم. أما انا، فسأطلب ان توضع فِرَش الرسم والاصبـاغ الزيتية عنـد قدميّ، وتوضـع عند رأسي قطـع واسعة من قماشات الرسم، خالية او بالطلاء الاول (الاساس). تلك هي شارات تُقاي واخلاصي.

١٨ تشرين الاول

أمطرت طوال الليل. ما استطعت مغادرة بيتي. افكر احيانا بانا جميعاً سنُكتَسح يوماً مثل اخشاب تطفو فيأخذها الموج.

لعبتُ مع كورنيليا لعبة القراصنة. هي صارت القبطان وانا البّحار والقطة هي العدو المرعوب ودميتها الاميرة الجميلة التي انطلقنا لاسرها وانتهينا الى الوقوع في حبها. استعملنا الكراسي وبعض الالواح الخشبية والأطر المكسورة سفينةً لنا. شددنا شرشف مائدة قديم الى مكنَسة ليكون صارية لسفينتنا التي تكنس الانجليز من المحيط.. كم بعيداً أبحرنا في غرفتنا الصغيره، الى نيوبتافيا والبرازيل والى الصين وجزيرة العرب وساحل البربر. أية ثروات جمعنا واية مخاطر واجهْنا وأية معارك خضناها وكسبنا.

كفى ما أحدثتم من ضجيج أيتها الطفلة صاحت هندريكشه من احدى الزوايا، ولكن من دون كثير انفعال. دافعت عن كورنيليا كلا كلا، ليست هي يا أنت وتأفّفت أمُّها بأسى. كان علينا أخيراً ان نتوقف. فقد طبخت هندريكشه غداءنا واحضَرَته. كورنيليا رفضتْ محزونةً، لكنها اشرقت بعد ذلك اذ لمحت الحلوى التي تحبها.. التفاح والزبيب بالفرن، وبتحضير خاص تفوح منه رائحة الدارسين.

أما أنا. فقد اخبرتها باني شعرت بدوار البحر فما استطعت الاستمرار في الإبحار، واني سعيد بالعودة الى اليابسة والى طبخ البيت الطيب مخلفين وراءنا مدى الملح اللانهائي والبسكت التالف العتيق.



١٩ تشرين الاول

نهـار طيب وفـير الضوء، لكنه مقفـر. وبالرغم مـن اني فعلت ما استطيـع لأُخفـي مزاجي عمن حولي، فـإن مشاكل النقـود تكوّمتْ ثانيـة علـيَّ، فاسودّت منها افـكاري. تذكرت كيـف التمَّتْ من قبل تمامـاً مثلما تلتم اليوم، وفي نهـار ضوءُه اصفر واضح مثل هذا النهار، تختفـي فيه خطوط وحجـوم الكائنـات والاشياء (الـدور، الخيول، عربـات الحمل، الرجال والنساء...) فهـي لاتقف مقابل الضوء لكن تبدو غرقت فيه وتطفو مشبعة به مثل قِطَع خبز في إناء كبير من حليب. كمـا ابعدتني عن عملي قضية مكـدرة مشابهة ذات صلة بشحة المال في يـدي، نتيجتها نفاذ صـبر الدائنين وتصاعد سـوْ تعاملهم. كم من الزمـن مضى على ذلك؟ سنة؟ عشـر؟ الشهر الماضي؟ يبدو ذلك اليوم في الابـد، مثلما يبـدو كأن حـدَث البارحـة. اشياء كثيرة تبـدأ الآن بالظهور وبالطريقة نفسها. انه العمر، كما اظن، وان كنت لا اجزم ان السنـوات هي المقياس الوحيد. فاشيـاء طفولتي، شبابي، تبدو لي كأنْ ظهرت تواً وطازجة استعيدها، بينما لا استطيع احياناً، في هذه الايام، ان اتخيل ما قد كنت أفعل قبل ساعة. لماذا أجدني لا استطيع ان اتذكر مـن الليلة السابقـة غير الطعام الذي تناولت؟ ذلـك طبعاً بسبب لطخ الطعام الباقية على واجهة قميصي.

احـاول الابتعاد عن قصة اموري الاقتصاديـة. لكن، لسوء الحظ، لا امـل في نسيانها. ذهبـت، الى مبنى محكمـة انسولفيس، تصحبني كورنيليا وتيتوسـ. وقفتُ تكلَّمَ مدير التنفيـذ في الموضوع، وبهدوء

شديـد وافقتـه خشيـت ان اهيج النـار ويتصاعد منه الشعـور الكريه بالاهمية لكن هدوء الرجل أثلجنا. لقد أطال قليلاً، لكني، أمانةً، قلّما أصغيت. فقد كنت أُكوّن عملاً في ذهني، عبرَ حقل وأشجار طويلة في الريـح، تطفو في ضوء يأتي خلال اكداس من غيوم سود، وتربة داكنة مثـل جبين القاضـي. لهذا أتيـت بهندريكشه وتيتوسـ معي، ليكونا أذنيَّ. لا وقـت لي لمثل هذه الامور، ولا قدرة تَحمُّل. لبّ الموضوع اني حُكِمْتُ بعدم الايفاء، فيجب لذلك أن تُستوفى مني الحقوق المالية وما يترتَـب على ذلك. على اية حال لن أُظلَمَ اكـثر بعد اليوم، كنت واقفا بـين هندريكشه وابني تيتوسـ، اللذين كوّنا لهـذا الغرض، شركة من المتعاملين بالفن.، فهمـا يتعاملان معي في الامور المالية مثل رؤسائي، وانا اعمل عندهـم. فهما يدفعان ما احتاج كما هما يرفعان ويتحكـمان في المبيعات.

وتقديـراً لديـوني، صدر الامـر ببيـع داري في بريســترات وكذا محتوياتهـا التي اشتريتها انا وزوجتي الحبيبـة الراحلة ساسكيا) وحيث عشت وعملت واحببت مدة عشرين سنة وولد في تلك الدار اطفالي، ثلاثـة منهم ماتوا فيهـا، ولد وابنتـان (كورنيليتان أُخرَيـان في ذاكرة امـي)، تبعتهـم زوجتي الحبيبة بعـد أقل من ثلاث سنـين، ماتت على السرير الذي كنت اشاركها فيه. لابد من القول ان هندريكشه وتيتوس (الـذي ورث الكثير من امـه ساسكيا، فهو يوميـاً، وبطلعته واساليبه يذكرني بها). اقول، هندريكشه وتيتوس لم يعودا كثيري الطلبات ولا متشدديـن مثل الاثريـاء يتعاملون معي في الماضي مـن اصحاب الثراء وملاك الارض. وانا الآن تماماً مثل طفل وثانيةً تحت رعاية الاكبر مني.

لا أقـول اني: لم اكن قد تحررت في اعماق قلبي. ففي الحقيقة انا لا

افهـم معنى النقود. ثم اني كسبت منها الكثير فترات طويلة. أوَ لم اكن اكبر رسام في الاراضي المنخفضة؟ لكن الشكل الفني ينحسر ويجري وقد ينحسر مرة اخـرى. لم أتصرف بحكمة في حياتي. كانت النقود تبـدو مثل جدول تطفو عليه الاشياء التي أُريـد - بعضها مُميت ولكن جميـل! بعضها مجرد لطيـف ووليد رغبةٍ آنية -هكـذا كانت نفسي. وهكذا جرت النقود كالماء من بين اصابعي حتى يبست يداي.

مثـل هذه الافكار وضعتني في حال مـن السوادوية لكني بسعادة أمضيـت بعد ذلك ساعاتٍ من العمل المسائي. اعادت ساعات العمل هـذه توازن النهار. فيا لهذا الابتهاج الـذي يغمرني الآن. فليس جيداً طبعاً أن امضي الى الفراش يصحبني ذلك الشعور بالمرارة.

٢٣ تشرين الاول

هذا اليوم، وانا في الشارع، شعرت بجوع شديد. رأيت امرأة تبيع فطائـر، كان يحدثها رجـل وهي مستغرقة في الضحـك. نوبات من ضحـك خشن متعاقبـة ملأتني بالقرف. كانـت في كل نوبة ضحك جديـدة يلتمع ويـرتجّ وجهها وعيناهـا وهي ترد رأسهـا بسماجة الى الـوراء كما لـو انها تخـاف ان تتلقّى ضربـاتٍ من الرجـل امامها لا كلمـات فـرح. مؤسف اني كنت بعيـداً فلا اسمع مـا كان يقول لها. رغبتي كلها كانت بان احصل على واحدة من الفطائر التي تبيع. لكني اخـيرا اشتريت واحدة من بائع يدفع عربة يـد بعيد عنها. ثم واصلت سيري لزيارة صانع اطارات جديد وصلني اخيرا كلام طيب عنه.

كيف أقتبس لون البذاءة؟ اكيد ان فرانس هالز هو من يعرف.







٢٩ تشرين الاول

دفعنـــي فضول لأن ازور الاسد. فلِقاء بضعة قروش يمكن مشاهدته في عرضـ في المدينة. هذا هــو الاسبوع الاخير، رجـل استعراضات محـترف جاء به من قبطان نقله مــن افريقيا بسفينتــه. أُشيع عن الرجل انــه يعامل الاسد كمــا يتعامل مع دمية. وانه لا يظهــر امامه خوفاً ولا تهيّبــا اكــثر مما لو كان بقرة أو عصفوراً. مــاذا كان حال البحارة معه؟ لا ادري. هــم مثلنــا نحن سكنة المدن لم يعتــادوا على رؤية اسد حي. كان الاسد محتجزا في عربة حولها اطواق حديدية متينة لتحمينا منه أم لتحميه منا؟ هذا ما يصعب القطع به.

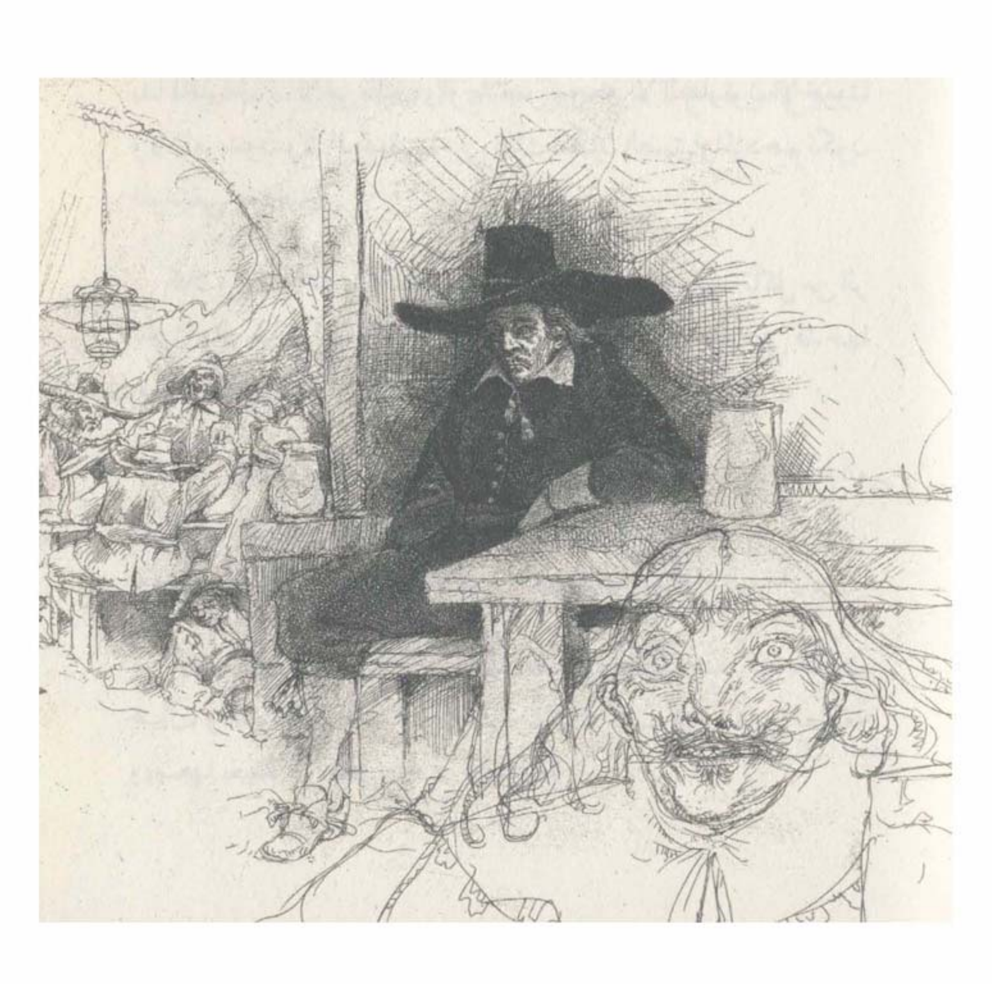
فمــع ان نصــف المتجمعــين يحدقــون في بلاهــة وصمــت، كان الاخرون منهم يبدون اكثر صلابة وربما اكثر سفاهة، يشجعون انفسهم بمــا يشربون. ولثقتهم بالسلامة، كانوا يمــدون اوجههم اليه ويتلفظون بلغو عال. وكلما اهملهم، صعَّدوا من خشونة اصواتهم واستفزازهم غير عابئين بهياج صاحب الحيوان او بنصائحه. هذا الحيوان المفروض به ان يكون ملك الحيوانات، بدا بعيدا عن امتياز الجلالة. على العكس تصــرّف بارتبــاك وبخجل شديد، حتــى انه لم يبالِ بكتلــة اللحم التي القوهــا اليه. لقــد جاؤوا له بحصان مذبوح، فلم يُستِرْهُ ذلك. لكنه في الاخــير قطع لامبالاتــه، ربما تذكر مجــده، فرفع طرفــه الامامي ورفع نفســه وألقــى زَأْرَةً ضاريةً مفزعة. فلزمنا الصمــت جميعاً. لقد ملأنا الرعب (ليــس النساء وحدهن والاطفال). انــا ايضا نلت حصتي من الخــوف. الاعتراف مطلوب في مثل هــذي الحال. لكن الاسد يعرف

انه مسلوب القوة، وغضبه ليس غير واحدة من حركاته الاستعراضية. فقد التمّ بعد ذلـك عائداً الى مكانه، ساكناً بصورة تثير العجب، حتى لقد بدا مستسلماً بل حتى عطوفاً. فهل سُحِبَتْ أنيابه واقتُلِعَتْ مخالبه، فمـا عادت له سطوة وما عاد بحاجة الى مـَن يسيطر عليه. الحقيقة ان الجماهـير ألجَمَتْ سلطاته.. هنالك طريقة اخرى للنظر الى القوة. فقد كان الحيوان يبـدو وراء ظروفه الحالية، ظروف المهانة والاسر، مايزال يحتفظ ببعض سليم من ذاته. بعض من نفسه لا وصول له. ذلك الجزء منه غـير خاضع لسيطرة، وهـو ما يزال يطوف متحـرراً ومزهوّاً، ما يزال هو نفسه.

لنتذكر:

لمعة التوحش
في المربع المطوّق ذي الأشجار،
عيني الاسد الصفراوين اللاتُقَرآن،
اللحم، طعام الاسد الاحمر
والعظام البيضاء الملتمعة خلال اللحم
رجلَ العرض ينخس الاسد
من بين القضبان
قساوةَ الانسان الطبيعي وخوفه
ونفسي التي احتوت على هاتين الصفتين.





١ تشرين الثاني

في الليلــة الماضية رأيت رجلاً في حانة. كان في وحدة عميقة حتى بدا فاقدَ الحياة. لاشيء يُثيره، أو يلامس روحه. لا الشاربون الآخرون ولا المعربدون ولا الموسيقى (وفي ذلك المكان الضيق والمزدحم تكون الموسيقى صاخبة).

كان وجهــه عاريــاً كعظم ميتٍ من زمن طويل، وقــد تآكل من اثر الحزن والوحدة. لقد التمّ جسَدُه داخل جلده. ظلت جعتُهُ في قدحها لم تُمَسّ، حتى استوى اعلاها.

بعــد حوالي عشريــن دقيقة، دخل رجــلان آخران وقــد اتضح انه يعرفهمــا. لاول مــرة بدَرَتْ منــه حركةُ حيــاة. رآهما، رَأَيــاه. عدّل جلْسَتَهُ وأبدى اهتماماً. فكأن مجرد حضورهما قد أعاد إليه الحياة.

لم يعــد عظْماً، صــار لحماً. حيّا بعضهم بعضــاً، ضحكوا بصوت عــال، وطلبوا شراباً جديداً. كل الوحشــة ارتحلَتْ عنه كما يخلع قبّعةً ويضعها بعيدة عن النظر، تحت المصطبه!

٣ تشرين الثاني

نحتـاج الى مسامير لخامات الرسم، نحتـاج لأصباغ زيتيه نحتاج لشموع من شمع لا من شحم. نحتاج الى يد أقوى وقلبٍ أنقى.

٥ تشرين الثاني

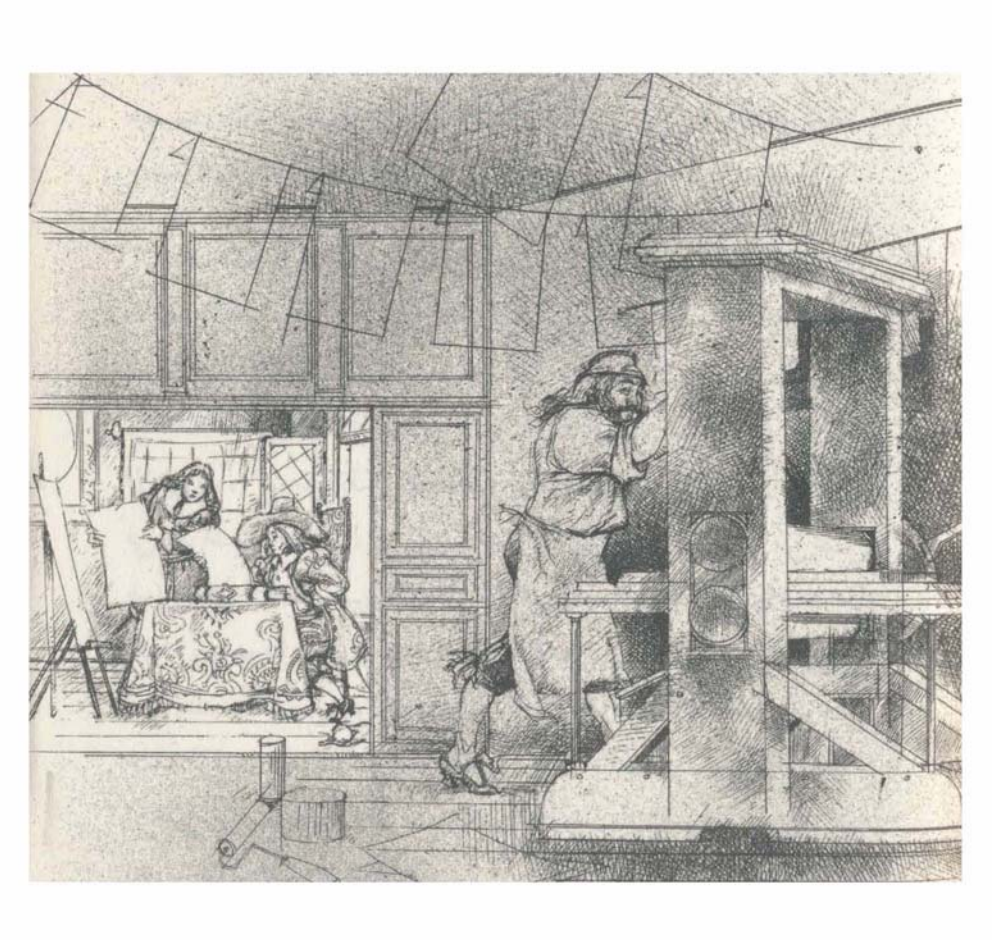
هذا الصباح، ذهبت الى جونخي بائع اللوحات والصور المطبوعة. ذهبت الى مخزنه حيث البيع حام. صور لمشاهد طبيعية، صور مؤسسات، صور حياة ساكنة، مشاهد دمار وتشكيلات روحيه. قلاع، كنائس وجسور وما أشبه، تلك التي أنتَجها جان فان دير هاندن المتخصص بالمباني العامة، بخاصة قاعة المدينة الجديدة. ما يزال يبيع جيدا والطلب يتزايد على صور المباني القبيحة.

بصراحة، بصراحة، فان دير هايدن، بالنسبة لي، أفضل مالياً في نشاطه الآخر، اعني في ابتداع وسائل لاطفاءِ النيران!

كل هذه تظهرُ تولُّعَ ابناء وَطَني في منازلهم. فرحتُ برؤية مطبوعاتي تُباع باسعار طيبه جداً. سألني دير جونخي: متى أسمح له بكلائش جديدة يسحب عليها. لقد بدا متلهفّاً لبضاعة جديدة مني. أوضحت له بان ما انجزته أخيراً من الكلائش قليل لاني اريد ان أواصل الرسم بالزيت في هذا الوقت. قال: مؤسف، فمطبوعات لوحاتك تُباعُ بلذةٍ وسرعة مثل الكيك.

أجبته: والأسنان المُحبّه للحلوى تضع في محفظتك ذهباً أكثر مني، ايها الصديق العزيز. تَقَبَّلَها بقلبٍ طيب. هو رجل طيب فعلاً.

مُتْعَبٌ جداً من هذه الأيام الرمادية التي تبدو أبديّةً لا تنتهي..



١٠ تشرين الثاني

أصابتني حمّى خفيفة فمكثت في الفراش تحت إصرار هندريكشه. ألمٌ في أطرافي. سبب ذلك اني بقيت أمس طويلاً تحت انهمار الماء، ثم ذهبـت مباشرةً للعمل من غـير ان أغيرّ ملابسي المبتلّـة بأخرى جافه. حسناً ان هندريكشه لا تعرف السبب.

وأنـا أنضح عرقاً تحت أغطية الريشـ الكثيفة، احسَسْتُ اني كمثل مرجاً حكمهُ مُدَثَّر.. الاشياء تطفو في رأسي وخارجه.. أفكار، صور، خيـالات وأنصاف أحلام، هـذا وأنا لستُ نائمـاً. جاءتني ساسيكا، واضطجعـت ثانيـة الى جانبي مُشِعّـةً لألاءه، كم مـرة شاهدتها بهذا الإشـراق.. كم مرة تذكرّتها هكذا، بهذه الصورة.. لماذا أنا، أنا اليوم، في الفراشـ احدثهـا، في مرضي هذا الأخير؟ متـى سأتمكن من عمل شـيء أكثر وافضل مـن تلك اللوحة التي رسمتها لهـا؟ يداي ما عادتا بقـدرة ونعومة يدَيْ ممرضة، وعليَّ أن أعمل بهما لأعبّر لها عن حبي. دع اولئـك الذيـن يقولون بـأني لا احمل لها مثـل ذاك الحب في مثل هـذا الوقت. (هناك كثيرون تهامسوا بهـذا الكلام ونشروه). ليعلموا ان قلبي طافـح بالحب الموجع وأشعر بما يجب أن أفعل من أجلها. كم تَخزُني تلك الذكرى. جريمتي.

هنالـك وفرة من الماء لتخيّلاتي التي تطفو كما على مجرى. مياه في كل مكان، تنزّ عـبر التراب، خلال شوارع المدن. ولكن ليس لي منها شيء، انا المتعطّش لها والمُتّقِدُ والذي يترجّاها..

هندريكشه أرسلت تيتوس حوالي الحادية عشرة ومعه نقيع لأشربه. شربتــه ونمت. استيقظت حوالي الثانية منتعشــا و توجهت الى العمل، مُقَدِّراً اني خُدِمت ما يكفي.



١٩ تشرين الثاني

اليوم وصلني بلاغ من رابطة الصناعيين، اولئك الفضوليين، الغربان الكريهــه. يبدو ان الامر يتعلق بفشلي في اطاعة أمر يمنع الفنانين الذين أفلسوا، مــن العمل التجاري. لقد حملوا البــلاغ، اندفعوا إليّ به بعد علمهم بافلاسي. انا، ببساطه، لن اناقشهـم، تيتوس وهندريكشه عادةً يتقدمان (حين اكون صبوراً أو عنيداً..). اوضحت بحزم وايجاز اني أصوليّ في عملي معهــم مادمتُ لا أتعامل في التجارة باسمي. لكنهم لم يقتنعوا ورفضوا وهنــا تصاعد مزاجي وصحت بوجوههم: سوف أرســم! ولا تستطيعــون إلا ان تعودوا وتسقط حطامــاً قواعدكم التي تضايقنــا. والآن اخرجــوا ودعوني بسلام. وأهلــت عليهم الكثير من الكلام الفجّ المليــيء بالشتائم، ثم طردتهم جملــةً. الحقيقة أن زوجتي وابنــي منعــاني من الانطلاق وراءهــم والاشتباك معهــم بعراك. كنت هائجــا غَضِباً، ومع اني هدأت هذا المساء، فمــا تزال تؤلمني الذكرى. أي وقاحة لهؤلاء الذيــن يُسَمّون ممثلين للقديس لوك، نصير الرسامين والنقّاشين ومجلدي الكتب وصانعي اوراق اللعب!

لا يقل احد اني ضد قوانين النقابات أو الروابط، فانا رسمت أخيراً لصانعي الأقمشة وأنا ممتنٌّ لما دفعوا من أجور.





٢٦ تشرين الثاني

مــن نافذتي كنت اراقب بواكير الثلج. حمداً أني داخل البيت. كم صعباً على أولئك الذين لا سكن لهم. لليهود عادةُ استدعاءِ غريب من الشوارع ليشاركهم وجبة السبت. سأحاول أفعل مثل ذلكَ.

عيــد الميلاد القــادم ادعو رجلاً مشـرّداً، مواطناً محرومــاً ليشاركنا الدفء والبهجة.

في أقل مــن ساعة، كسا الثلجُ العالَم بالبياض مؤكداً حقيقة الشتاء. جعلنــي حســوداً متشوقاً. لا استطيــع رسم العــوالم المحيطة بي. مع بيضتين، السردين المملح في الصحن على مائدتي، الخبز الاسمر والجبن البرتقالي والنبيذ والعسل والعصائر ومَخفِيّات جسدي، الدموع، المني، العرق و البول والاقذار تحت اظافري.

لــو أُزيحِ الشحم المكدس عن قفاي وكتفيَّ بالمضخة واضع اصباغ الرسم بديلاً عنها.

وقبــل كل هذا، لو أرسم قرمزَ دمِ الحيــاة فيّ وبريقَ حدقتيَّ لأنعش ابداعي بمزيج حقيقي حي.



٢٨ تشرين الثاني (يوم الاحد)

هذا اليوم شكوت مألوماً لهندريكشه: أن قد أصابنا الفقر، وسنعود قريباً الى الشوارع مرةً أخرى. وسنشحذ هذه المرة.

صرخَتْ: لكنك، ما يزال لك طلاب وأنصار، وانك تكسب الكثير، وديونك تحت السيطرة.. يا رجل، لديك نقود!

أجبتُ محتدّاً: لكن، ألا ترين اني لا اشعر باني املك شيئاً؟

آ...خ!!

٢ كانون الأول

كتبت اليوم رسالة أرجو فيها (آه، أي مَذَلّة) دفْعَ ثمن لوحة أنهيتها وسلمتهــا قبل عــدة أشهر! واضحٍ من هذا ان الحــزم فقط في ان تدفع ما عليك من ديــون لهم، اما أن يدفع التجــار الارستقراطيون ديونَك عليهم، فذلك ليس مطلباً أخلاقياً!

هــذا مــا عرفته جيــداً من تجاربــي ومن أول يــوم عرفــت التعاقد وتعهــدت بتسليــم الأعمال لهم. فإذا لم تسلمهم مــا تعهدتَ به، فقد انتهكــتَ الوصية الحادية عشرة– انتاجك ملــكُ سيدِك ولست مالكَه ولا هو في حوزتك. وحين يكون الحذاء على القدم الاخرى لا يكون عدم تسديد الحساب خطيئة. هذا يختلف عما في ايطاليه حيث الفنان يُحْتَرَم ويعامل كمثل أمير. هنا ينظرون للفنان نظرتهم للحلاق وصانع الكراســي او للفتاة التــي تسوّي ياقات الرجل الــثري. وهكذا، فكل مهمــة الفنان هــو أن يؤدي الواجب الــذي كلفه بــه الله للارض، أن يعــزّز الدولةَ ويزّين الأثرياء ليسعفوه ممــا بسلطانهم. تلك هي وحدها مكافأتهم له. تفضُلّهُم عليه بنفوذهم.

كانــت هندريكشه غاضبةً جداً من كتابتي لتلــك الرسالة. فأنا بها سأثــير عاصفة في مكتب قروض ميهجــر وستدخل هذه العاصفة الى داخــل غرفة نومه إذا طالبته بمستحقّاتي. ثــم اننا اتفقنا على ان تكون مثل هذه الاعمال ضمن مسؤوليتها ومسؤولية تيتوس، وحسب العقد المــبْرم بيننا علــى ذلك. أنا بالرغم مــن تلك الاتفاقية، لــن اسمح لها.

سوف تذعن بعد كثير من الاصـرار من جهتي وبعد الدفاع والغضب واتهامها بالكبرياء الزائفة.

قلـت لها هل يرضيهـا أن اقول: ايمكن أن أتشـرف بسماحكم لي بالرسـم استجابةً لاهتمـام سيدي المجيد المكـرَّم...؟ و أتوسل إليكم بـان تسمحوا بان أبقى خادمَكم الضئيل غيرَ الجدير باسمكم..! وكل باقـي هذا الاطناب الفارغ الذي هو بعض من ديكورات الحياة الزريّة والتنظيمـات الزائفة لسلطان هـذا العالم.. حتى صـارت امثال هذه كمثل الكواكب في القبة الزرقاء، صارت بعضاً من ارادة الله.. التمّت هندريكشه واصابها القرف مما سمِعَتْ.

طبعـاً انا لا أعني كلمة مما قلـت. جُمَلٌ مثل هذه وانفعالات كهذه تمـرّ بي خـلاف مزاجي ورغبتي فانا لا اعتقد بنظـام للكون كهذا ولا يمكـن ان اؤمن به واخضع له. لست وضيعاً، سامحني الله إذا كنت غير جديـر بفني وبنفسي وباولئك الذين أحب، لا بأولئك الذين يخلفون وعدهـم، المتجاوزين على حقوق الناس، مـن ذوي الاكمام المطوية، من البارونات والتجار!

أطيـبُ وأحبُّ صديق، روّحَ لي بجناحيه هذه الليلة. فأزاح العبء عن روحي. لقـد رآني مألوماً، فنفخ فوق الألم الذي أثقل قلبي وأزاح الهـم. تكلمنا معاً وعملنا. لكن الصديق ارتحل. الآن لا أستطيع النوم. قريباً سيشرق نهار جديد.



٣ كانون الأول

صداع موجع. مرض وارتجـاف. لا ليس إفراطاً في الجنّ أو الجعة ولكنـه افراط في استنشـاق الاصباغ الزيتية. مهمـا وسّعتُ من فتحة نافذة غرفةِ العمل، تبقى الرائحة ثقيلة لا تبرح.

أفكّر بهذا دائماً وأحـذّر الزائرين من الاقتراب كثيراً الى اللوحات خشيـة ان تزعجهم الرائحة لكن بعضهم يـزداد قرباً، ويفسّر كلماتي بانها إهانة مُقَنّعة، وشدة غطرسة مني.



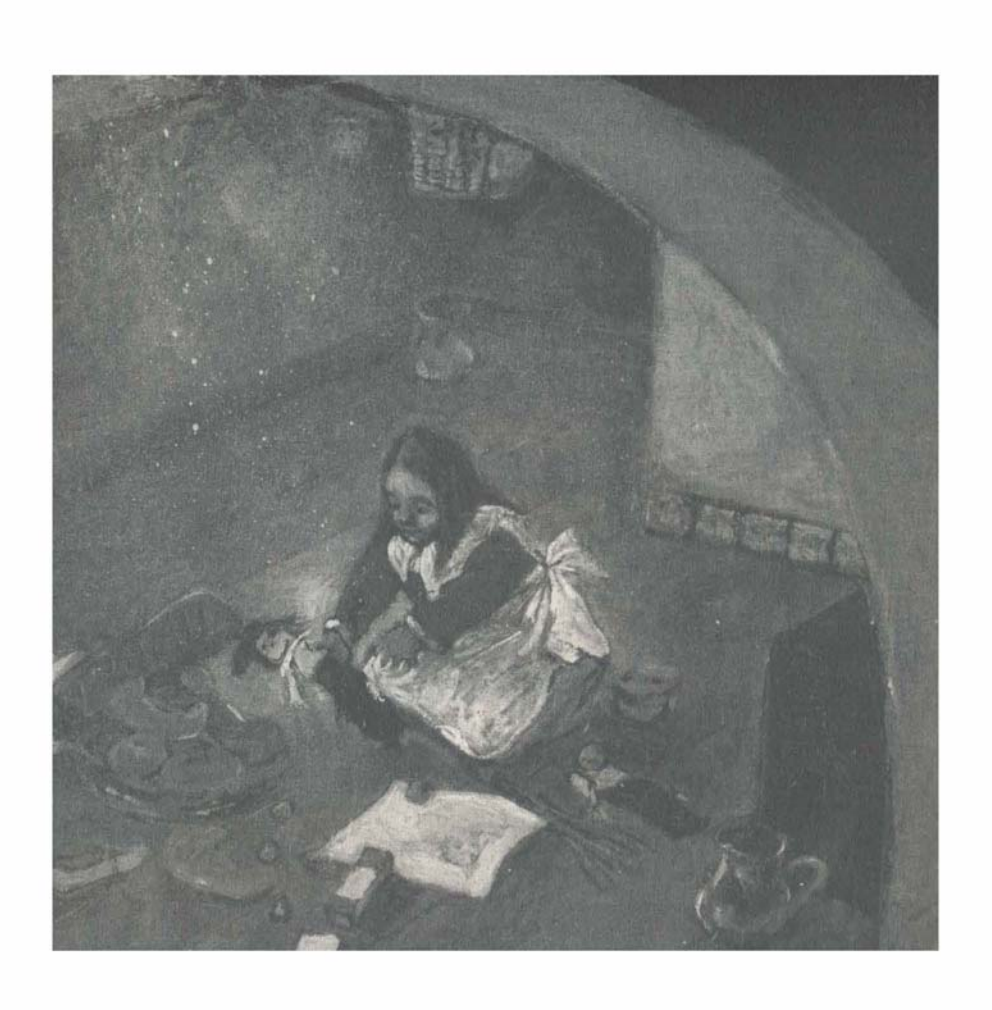
٦ كانون الأول

يومٌ آخر مضى من ايام القديس نيقولا. امتلأ حذاءا كورنيليا اللذان وضعتهما بفرحٍ طاغ أمام النار.

نحـن، اخذنا الجَزَرَ الذي وضعته لفرس نيقولا وتركنا مكانه قطَعاً مـن كعك وقطعاً خشبيـة مصبوغة وقطعةَ خبـزٍ قطعناها بشكلٍ يشبه كورنيليـا ورسماً لقطة، كنت قـد رسمتها لها، ودميـةً اخرى وبلبلاً صغـيراً جميلاً ملفوفاً بقطعـة قماش حلوه، وطبعـاً غصينات صغيرة طريـة ليضربهـا بهـا نيقـولا في الطريـق. سيحمل بيـتر الاسود ذلك الكيسـ، لكنه سيعود بها إلى اسبانيـا إذا أساءت التصرف في الطريق. وقد وعدت بحماسـة وتأكيد الاّ تفعل. كان يوماً حقيقياً بالنسبة لها. وقـد نظمتْ أبياتاً قرأتها علينا كما أعدَّتْ بعض الألغاز، التي علينا أن نحزرها..

هندريكشه أرادت الذهاب للكنيسة، ولكنها مُنعَتْ، لم تستطع.. لـذا رتّلنـا جميعاً بعضـ الصلوات. ترتيلنـا الجماعي لَطّـفَ مزاجها فمضت تلعب مع ابنة صاحب الدار بينما رحتُ اكشفُ مزهواً هدايا واحدهم الى الآخر.

بعدهـا، أمضيت ساعـاتٍ مثمرةً مـن العمل الجيـد وراح تيتوس يطحن كمية من الالوان، فنحن قد بدأنا نفلس..





١٩ كانون الأول (الاحد)

الايام مثل بيضة صغيرة من ضوء متجمد في منقار نسرٍ هائل.

مباركون هم صنّاع الشموع، لانهم يجلبون الرؤية والسلوى.

نحن نضع شموعَهم في اواني فيهـا ماء لتنشر انعكاساتها مدىً أوسع مـن الاضاءة. نتناول طعامنـا اليوم مبكرين. النـار في الغرفة تضيف من زاويتهـا وهجاً بهيجـاً. تكلمنا قليلاً هذه الليلة. حتـى كورنيليا أُسكتَتْ فتوقفت ثرثرتُها. لقد أخافتنا قوّةُ هذا الضوء، انها معجزة النهار في الليل.

بعـد الغداء طلب مني الأطفال أن أقـرأ لهم في الكتاب. وفعلتُ كما فعـل والـداي، وسمعت صوتيهمـا في صوتي، وكـذا والداهما ووالدَا والديهـم ينفخـون ويدفعـون بكلمات الأمـل قوية تأتي مثـل لهب في الظلام، أحاط بنا ضوء الشموع، أقام سداً يبعدُ عنا الظلام.

بعد ذلك، وبالرغم من ضراوة البرد، أنجزتُ عملاً. وأنا أعمل، فكرت كيـف اني ابدو، مع آنياتِ أصباغـي، أشبهُ الشمعة. فكلانا يجهد ويكرر الجهد في طلب الضوء من الظلام، كما يفعل ابناء ريفنا إذ يطلبون الارض مـن البحر. احسست احساساً حقيقياً بأن علـيَّ أن التحم بفرشاتي، من دون فـكاك، مثل أولئك البنّائين الذين يقدّمون المعاول وشفرات التسوية والمساحـي ليخلقوا حقـولاً خصيبة أو ليهيؤا جزُراً أكـثر يشيدون عليها مدينتَنـا العظيمة. أعمل، ماضيَّ وحاضري، وبكل جهدي الابدي الذي لاينثني، أعمل!

٢٢ كانون الأول

وقفت خارج السوق، جوار أودكيرك أحب النظر الى الوجوه هناك، والى التجار تصحبهم زوجاتهم ذوات الرقاب الغليظة المتلامعه والألسُن السريعة التي يراها البعض قاطعة. هنالك السيدة العجوز في الكشك حتى في أرداء طقس. الساحة ملأى بالتعساء والعميان والمقعدين والحدُب والشحاذين. ذلك تحد لانظمة آباء مدينتنا. أرى واحداً يحمل أكبر لحية رأيت، هي كثيفة طويلة رمادية. فكرتُ لو انه يعمل موديلاً لرسم فخم، اتمنى عمله لأمير في قصة توراتيه. طلبت منه أن يأتي ويزورني. كان متردداً في البداية. لكن حين قلت له انه سيحل في مكان دافيء يحميه من الايام البارده فضلاً عن إناء من الحساء الساخن، وعَدَ بانه سيفكر بالامر. آمل أن يأتي، مسكين هذا الرجل.

لكن هناك الكثيرين من امثاله..



٣٠ كانون الأول

مادامــت السنةُ تسحــب بابَها لتغلقه، دعني إذن أُقــدم تقريراً عمّا انــا فيه. جسمــي تراخي، هذا أكيد وهو متهــدِّل. لم يعد مشدوداً، لا قدرة لي على الانحناء، أُحَسّ بوجع، بجفاف و كدر مثل ذلك الصبغ الساقــط علــى ارضية غرفــة عملي. هكذا هــو التقدم بالعمــر. أليس كذلــك؟ أوَ لم أُتعبُه دائماً وأُرهِقهُ حتــى في شبابي؟ الحقيقة، أشعر اني كنت اتهيّأ لمثل هذا منذ الثلاثينيات.

امــا عــن إرادتي في العمــل، في نقــل المشهد ومنحِه شــكلاً، فقد ظلــت الحاجة لذلك، كما ظل دمي يجــري وقلبي يخفق. هذه الرغبة في العمــل ظلت شديدة وقوية كما كانــت دائماً كل مصائب السنين، كالمحاكمــات والمِحن. اجتزتهــا منتصراً و لم تفعل ســوى ان اعادتني لطريق العمل ودونما أي فترة للتوقف. على العكس، هذه كلها أضافت لي قوةً ونشاطاً في العين والرسغ.

نعــم مازالت تزورني أفكار مُكَدِّرَه ولن أدير ظهري عن مزعجات جديــدة من تلك التي تصــرّ على تقديم نفسهــا إلي أو تلك التي تشغل اهتمامي. فهذه هي الطريقــة لتقبّل الحياة كلها. لاحكمة في تجاهلها. الخوف مهما طال، يهرب من بعد ويظل عقلي صافياً وروحي حرّه..

انها "الملْوَن"، باليتة الرسام حيث يمزج الوانه، وحيث يضع المبدع ابهامَه ليسلمَ حتى يكمل مزج ظلال عمله، عملِه الذي لم يولد بعد.

علـى ما بها، كانت سنةً طيبة مُنْتجِـة. لقد انجزتُ فيها عدة اعمال وتعهدتُ ببضعةٍ اخرى مهمة.

انتهت السنة. كـم استمتع الان بالاستقـلال، استقلالي انا، لانتج العمـل الـذي اريده لا الـذي تُمليه عليّ نـزواتُ الاخريـن وغوغائيةُ رغباتهـم. لكني لا اريـد ان اتكئَ على امجادي. هـذه السنة، ساعمل بجد اكثر.

حتـى الان لم أُشـدْ بقيمة ما قدَّمَتْه لي عائلتــي العزيزة، عائلتي التي احـب وابـارك. لكَنهم في قلبي. هـم يمتزجون بروحـي وفني، تلك صِلاتٌ لا تُرى.

فلاشكرهم الان، لاقرَّ الان بفضلهم وبامتنانٍ وبفخر!



٣١ كانون الأول

تيتوس وهندريكشة وابنتنا المحبوبة ينامون بسلام. وعسى الله أن يحميهم. أنا، حقيقةً، أهتم بهم اكثر مما بنفسي. صديقي الرجل المجنّح غادر توّاً. كان لي حديث طيب معه هذه الليلة. أوضحَ لي لماذا هو يحب الطيران. أي احساس بالحرية يمنحه الطيران واية طاقة. قلت له اني حين يطيب الوقت، يمنحني الرسم مثل هذا الشعور. نعم، ليس غالباً ولكن أحياناً. قال لي انه يفهم ما اتحدث عنه قدْرَ ما يفهم منه ملاك. (هو رقيق جداً ومهذب) سألني ألا أحب أنا أيضاً ان يكون لي جناحان مثله لأحلّق في السماوات؟ أحببته الارض كثيرة جداً عليَّ، فلا أستحق بعد هذا جناحين ولا احتاج لهما. وهنا أحسست بأني في حال كهذه يجب أن أعتذر، فقد جرحت مشاعره. أبداً، قال لي. ثم أكمل متحدثاً بالطريقة نفسها التي كنت ارسم فيها صورتي الشخصية (فقد ابتدأت برسم لوحة اخرى). أبدى لي ملاحظة أو اثنتين عن استعمال فرشاة أو سكين لخلفية اللوحة، ثم مضى، بعد قبلة وداع على جبهتي. قبلة يمكن ان أصفها بالاخوية اكثر من كونها احتراما.





رامبرانت؛ سيرة موجزة

❖ ١٦٦٩ ولد رامبرانت هارمن زون فان رزن

Rambrandt Harmen Zoon Van Rijn

من أمٍ خبازة وأب طحّان.

❖ ١٦٢٠ كان تلميذا في المدرسة اللاتينية في جامعة ليدن. ترك الدراسة فيها بعد اكثر من سنة بقليل. يبدو انه وجد ارتياحاً في الميثولوجيا التي كانت موضوعا للعديد من لوحاته.

❖ ١٦٢٠–١٦٢٤ خلال هذه السنوات كان رامبرانت ما يزال يعيش في ليدن. التحق تلميذا بالرسام فان سواينبورخ (Van Swannenburgh) وهو رسامُ مشاهد طبيعية، غالباً، متأثر بالفن الايطالي. انتقل الى امستردام ليدرسَ على يد بيتر لاستمان Lastman Pieter واصبح من بعد مساعده. لاستمان هذا كان تلميذا لآدم الشيمر(Adam Elsheimer) والاخير الماني متأثر بالايطالي شياروسكوريسل(Chiaroscurisls). أَثَرُ فن النهضة المتأخر، وبخاصة فن كارافاكِيو Caravaggio وصل من ذلك الوقت اوروبا الشمالية. يمكن ان يكون رامبرانت قد تأثر بهذا الفن خلال تدريبه.

❖ ١٦٢٥ عاد الى ليدن، حيث عاش حتى ١٦٣١، ليصبح رساما.

❖ ١٦٢٨ اصبح جيرارد دو تلميذاً لرامبرانت ومساعدا له من بعد.

دو رسم باسلوب رامبرانت فكان نتيجة لذلك رساماً ناجحاً

❖ ١٦٣٠ توفي أبوه

❖ ١٦٣١ عاد الى امستردام

❖ ١٦٣٢ محاضـرة في تشريح درليكولاسـ تولب. أول مجموعة كبيرة يُكَلَّف بها.

❖ ١٦٣٤ تزوج رامبرانت من ساسكيا(Saskia) فان اولنبرغ (Van Uhlenburgh)

❖ ١٦٣٦ رسم اولى لوحاته الطبيعية

❖ ١٦٤٠ توفيت امه

❖ ١٦٤١ توفي ابنه تيتوس Titus

❖ ١٦٤٢ توفيـت ساسكيا. تسلّمَ مبلغاً كبيراً يُقَدَّر بـ ١٦٠٠ جيلدر، مقابل لوحتـه حراسة الليـل (The Night Watch)واصبح كارل فابريتيوس (Carl Fabritius) تلميذا له.

❖ ١٦٤٥ كانـت هندريكشه ستوفلز(Hendrickje Stoffels) مدبرة منزله ومربية تيتوس.

❖ ١٦٤٥-١٩٤٦ تحمـل الكثـير مـن االديـون و لم يتلـقَّ إلا بضعه تكليفات خلال هاتين السنتين.

❖ ١٦٥٦ أعلن افلاسه. أُعِدَّت قائمة بعائدياته.

❖ ١٦٥٨ كل ممتلكاتـه، بينهـا داره، أُعِلنـت في المـزاد. واضطُـرَّ للدخـول في اتفاقيـة مالية مـع تيتوس وهندريكشـة، جعلت منه

عاملاً عندهما. لكنه انتج في السنوات التي تلَتْ افضل اعماله.

- ❖ ١٦٦٢ رسم لوحته

The Guild Clothworkers of the Sendics

(رابطة عمال النسيج)

- ❖ ١٦٦٤ ماتت هندريكشه.
- ❖ ١٦٦٨ مات إبنه
- ❖ ١٦٦٩ مـات رامبرانت في الرابع مـن تشرين الاول مخلفاً كورنيليا طفلته من هندريكشه..

رامبرانــت، لم يكن يؤمن بالخلــود. ربما حضر له كأمرٍ ديني، لكنه لم يصل عنده حد يقينيات الكائن البشري. و لم يكن عنده فاعلاً وموجِّهاً. وهذا كان سبب اكتئابه. لكنه أيضاً، لم يستطع ابعاده عن حياة الانسان المتفوق فيه.

لهــذا كانت اســتمراريته متجاوزا ما هو ادنى. هو بقي سـجينَ احلامه الكبيرة وسـجين فنائه وظمئه. جسد متنافر. لذا صار المكان والزمان عنده بُعدين لخلية جســدية. لم يكفّ عن قياس الفرح المر بالاضـطهاد، وكمـا لو ان الحرمان من الابدي لم يكن الا وعياً مؤسفا اكثر بنهايتنا.

مارسيل بريون ١٩٤٦
MARCEL BRION

رامبرانت صور نفسه بوضوح، في الرسم الزيتي وفي النقش على المعادن وفي التخطيطـات، ما يقارب المائة مرة. وفي كل مرة من هذه المرات نتعلم اكثر عن رامبرانــت. إلى حد مـا، حقّقَ رامبرانت متطلبات يونج وعرض الشخصـية في رسـومه كظاهرة متطورة. تقنياً، كانت سمتُه التقدم بحذق متزايد في مضمون اللوحة. تبدو النفس في رسومه تخترق القناع المرسوم وتجعل منه تسجيلا مهتزا لحياة الفنان الداخلية. لكن رامبرانت كان يشـعر بوضـوح ان هذه الدرجة من الكشـف ليسـت كافية وان الشخصـية تتحطم تدريجيا تحت ضـغط الواقع و الوجه يفقد نعومته وتناسقه وتماسكه.

هربرت ريد 1955


ISBN 978-2-843090-15-8